

AL-HUWAYZI
TARIKH AL-IMARAH



2271.40157.389
al-Huwayzī
Tarīkh al-imārah

[illegible]

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

تاريخ الإمارة الأفراسيانية

أو

ملقة مفقودة من تاريخ البصرة

بقلم

الأستاذ محمد الخصال

قاضي السليمانية

والعضو المراسل في المجمع العلمي العراقي

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م

[al-Huwayzī, 'Abd al-ibn Nāsir]

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

Tārīkh al-imārah

تاريخ الإمارة الأفراسيابية

أو

دائرة مفقودة من تاريخ البصرة

بقلم

الأستاذ محمد الخصال

قاضي السليمانية

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على رسول الله

محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

عثر في مكتبي على كتاب قيم من نفائس الكتب الخطية ، ونوادير المخطوطات العربية ، يتضمن مائتين واحدتين وستين صفحة من القَـطـع الكبير ، أعتقد أنه لم يطلع عليه أحد من الباحثين ولا نظير له في دور الكتب والمتاحف المشهورة ، ونادر الوجود ، وهو كتاب : (السيرة المرضية ، في شرح الفرضية) تأليف العالم الباهر والشاعر العبقرى الماهر ، العلامة (عبد علي) بن ناصر الشهير بابن رحمة الحويزي . والكتاب في شرح بيتين من أبيات أمير البصرة السيد (علي باشا) بن (أفرا سياب باشا) بن (أحمد بك) ابن (حسين چلي) بن (فرحشاد) بن (أفرا سياب) بن (سنادست) التركي السلجوقي التي نظمها في وزن المواليا أعني المواليا الفرضية ، وبهذه المناسبة كتب المؤلف عبد علي الحوادث التاريخية والوقائع الجارية في ولاية البصرة التي شاهدها بنفسه في عهد الأمير علي باشا الذي دام عشرين سنة أي من سنة [١٠٣٣ هـ] إلى سنة [١٠٥٣ هـ] ليكون كالتأريخ لإمارته ، وهذا الكتاب يملأ فراغا مهماً من تأريخ البصرة التي هي أهم جزء من أجزاء العراق ، حيث يتبين منه سعة الولاية ، وتراخي أطرافها ، كما أنه يتضح منه كثير من نواحي حياة عبد علي ومؤلفاته المجهولة وقصائده الرثانة ، وأشعاره البليغة ، التي جادت بها قريحته الفيضة في مناسبات شتى ، ولم ينشر منها شيء في ديوانه . والحق أن الكتاب

حلقة مفقودة من تأريخ البصرة جديرة بالاهتمام من وجوه عدة .

لقد رأى المجمع العلمي العراقي أن ينشر القسم المتعلق بتأريخ البصرة وأميرها على صفحات مجلته الزاهرة ، وها أنا ذا أستخرج من الكتاب نصوص المواضيع التاريخية بكل دقة وأمانة ليكون القراء الكرام على علم بهذه الحلقة المفقودة .

يقول المؤلف : « ... ووقائع مولانا صاحب السعادة — بلغه الله مراده — التي شاهدنا أكثرها ما حملها عليها ، ولا ساقه إليها ، إلا لاسر العرض ، بين ملوك الأرض ، وإذا أفضى بنا الكلام الى هنا فلنذكر شيئاً من ذلك يكون كالتأريخ لدولته المقرونة ببقاء الأبد ، ويكون بها هذا المؤلف قد ظفر بما لم يظفر به أحد ، فنقول : وبالله التوفيق : كان جلوسه — حفظه الله — في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين بعد الألف وذلك أنه لما انتقل والده — أنار الله برهانه وأسكنه فراديس جنانه — من دار الأحزان ، الى جوار الملك المنان ، ودخول الجنان ، وملاقاة رضوان ، والخور الحسان ، في التأريخ المذكور ، قام بعده مقام الشبل بعد الأسد ، والبدر بعد الشمس ، يسد ما يظن اختلاله ، ويقوم ما لا يرجى اعتداله ، بين بشر يبيده ، وبشر يسديه ، وحال الناس من في ذلك مُردّ بين أمرين ، ومقلب بين نقيضين ، جمعوا بين الفرح بسلطنته ، والحزن لفقد والده ، فكأن أبانواس نظر الى تلك الأيام بقوله :

جرت جوارٍ بسعدٍ ونحسن

فالناس في مآتم وفي عُرس

يضحكها القائم الأمين ويب

كيها وفاة الرشيد بالأمس

فسُرت الأولياء وأظهرت ، وحزنت الأعداء وكتمت . وما كان بشره الذي أبداه ، وجوده الذي أسداه ، للناس حتى بردت قلوبهم بعد الالتهاب ، وسكنت أنفسهم بعد الاضطراب ، إلا فرحاً منه بنيل الملك والتمكن من سرير العز الذي يسأله الأنبياء ، ويتمناه الأولياء ، قال الله تعالى — حكاية عن (سليمان) — : رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد

من بعدي) ولقد قلت فيه :

عوداً ويجلي النحس عنك بأسعد	ملك يقيق الفقر بشر جبينه
إلا لرشف دم الكمي الأصيد	حامي الحقيقة ليس تظماً بيضه
شفيت من النقع المثار بأمد	أسد إذا عبث القذى بعيونه
إلا بفتك طي عيون الخرد	يهوى السيوف فما تراه مشبهاً
في الميل تلحق بالقنا المتأود	ويهزه هز القددود لأنها
فاذا تلين حنثت إن لم تسجد	آيات سؤدده العزائم في العلى

ثم لم تنسأ عاشره مفتح السنة الرابعة والثلاثين حتى نزلت عساكر الأتراك ورؤسهم وقائدهم يومئذ (إمام قلى بك) بن (بك وردى) المكنى بـ (أبى الروس على القبان) ، ووصول الخان الأعظم إمام قلى خان بن الله وردى خان الى (الدورق) في جموع تعجز الحاسبين عن حصرها ، وكتائب تذهل العيون في إبصارها عن بصرها ، وذلك ان الشاه (عباس الصفوي) كما ملك بغداد في السنة السابقة رام دخول والده (افراسياب باشا) رحمه الله في طاعته ، وانقياده لأوامره ونواهيته ، فارسل اليه خلعاً فاخرة والقاباً معظمة يستميله الى الالتئام معه .

فلم يجد رسوله الا الطرد قبل الالتقا ، والمبادرة بالجفا ، قبل الحلول في تلك الأرجاء فشق ذلك عليه ، وعظم الأمر لديه ، فأمر الخان المذكور بالمسير ، الى البصرة - بالعدد الكثير ، والجم الغفير من الأتراك ، فصادف وصولهم وفاته ، رحمه الله وقيام صاحب السعادة والنصر مقامه ، فصنف للقائهم جيوشه من الخيل والرجال ، وشحن السفن الهندية والمقننات المخترعة التي لم يسبق المتقدمون الى ابتكارها بكفاءة الرجال ، وصناديد الابطال ، وخرج من البصرة في اليوم المخبر به من السنة المذكورة الى الموضع المعروف بـ (بكر دلان) (١)

(١) بالباء الواحدة المضمومة والكاف العجمية والراء والال المهملين وبعده لام واف ونون وهي كلمة تركية معناها بالبرية مأزق المحاصرة ، وذلك انه رمى منه بمفع غراب في سفينة هندية مرق خاضرتها فسمي بذلك لذلك . (منه)

وكنّت معه في هذا السفر ، الكافل بالظفر ، ودأفت عساكر البحر الى (القبان)^(١) ومصادفة الأقران ، وأقام في الموضع المذكور بعساكر البر لينظر في أمور من قدمنا ذكرهم أعني الأعداء المناققين ، فأقطع بعضهم إقطاعات لم تكن له من قبل واقامه في منزله ، واستصحب بعضهم معه يلاطفه ويسلّيه ، ويعده الخير ويمنّيه ، وكان ممن تخلف (عبدالله ابن مانع) و (نعمه الله بن عليان) ، وسيأتي ذكرهم مفصلاً .

ومن المستصحبين (عيسى الحويشي)^(٢) والأمير (ناصر الدين الزبيدي)^(٣) وركب من (بُكر دلان) في اليوم ... حتى نزل الموضع المعروف (بالحيمي) فورد عليه الخبر من ابن خاله الأمير (ابراهيم بك) بن عبد الرحيم أمير الحفار يومئذ ان الاتراك انتهزوا فرصة ، واغتنموا غفلة ، ودهموا من قبلهم من العساكر المنصورة وقيدوا السيف فيهم وقتل خلق كثير ، وأمر القلعة مبهم فنههم من قال أخذت ، ومنهم من قال سلمت ، فامر الرسول ان يكتّم هذا الخبر وأظهر لمن سأله عنه أن الأمير المذكور يستدعيه الى النزول بساحته ، والى المرور بناحيته ، ليقوم بالضيافة ويظهر ما يشرفه من الخدمة ، فلم يكتّم مثل هذه الأسرار ، وهل تخفي الشمس في رائعة النهار ؟ ، فلما أصبح أمر الأمير الكبير خليل بك ابن احمد الحلبي ختن مولانا على احدى كرائمه بالاعداد الى القبان ، وان يركب من عزمه جواداً غير متكل على فرس أو حصان ، وان يسبق في عدة من ذوي النجدة والشجاعة ويدخل القلعة بنفسه ومن معه إن رآها قد سلمت ، وإلا انكفأ الى المعسكر سريعاً إن أخذت ، فاخذ بالسير مسرعاً وركب - سلمه الله - خلفه يقتفي أثره ، فرجع رسول الأمير المذكور بالبشارة بسلامة القلعة وضبطها بيد أوليائه . وحفظ الله اياها من ايدي أعدائه ،

(١) اسم موضع .

(٢) الحويشي : نسبة الى حويش قرية من قري البصرة . (منه) .

(٣) بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وياء مثناة من تحت ودال مهملة - قبيلة تسكن (الرسائق) نسب

البحا . (منه) .

فأخذ على طريق المنيثر إختصاراً للطريق عادلاً عن المرور بالحفار ، لضيق الوقت عن الانتظار ، فتواترت إليه الرسل بالبشائر بدخول الأمبر المذكور الى القلعة وضبطها وإحكامها فنزل ما بين المنيثر والقبان في أرض (النيماء ^(١)) فنزلت الأوامر ورؤساء العساكر منازلها ، وحلت صناديد الإبطال في محالها ، وأقام يومه يدبر أمر القتال ، وينظر أوائل الحال ، وتوالى المال ، وبث الجواسيس لاستخبار أمور العدو القريب والبعيد ، فبلغه الخبر ان الخان الأعظم في الدورق يخرج الى الصيد على جاري عادته مع جمع غفير من خواصه ومقربي خدمته ، فأخذ رأيته الذي عوده النظر في الأمور البعيدة في ان يجزئ اليه جيشاً كثيفاً وعسكراً كبيراً يأخذه من وراء عساكره المتقدمة عليه ، ويشن عليه غارة تذهله عن معرفة يديه من رجليه ، فانتخب من حماة رجاله ، وكماة أبطاله ، قوماً لو قذف بهم البحر لسكنت أمواجه ، ولو رمى بهم يذبل أو رضوى لهدت أبراجه ، رجال يهشون الى القراع هشاشة الأطفال للرضاع ، ويرتاحون للكفاح ، ارتياح العشاق للملاح :

آساد موت مخدرات ثمالها إلا الصوارم والقنا آجام

تخذوا الحديد عن الحديد معاقلاً سكتانها الأرواح والاجسام

فلم يتم هذا الرأي حتى بلغه الخبر ، ففقد الصيد منه العين والأثر ، وامتنع من الركوب إلى متصيداته ، والركون الى متنزّهاته ، واعتقل نياق السرور في معتقله ، وأقام قيام الجيش في منزله ، فلما كان في اليوم ... ركب من الأتراك عساكر كالسيل المنحدر أو الجراد المنتشر ، قد غصت الأرض ببوارق أسنتهم وصوارمهم ، وأشرقت البيداء بلمعان دروعهم ومغافرهم ، وصروا من وراء الشط بحيث تراهم العساكر المنصورة ، والجحافل التي هي بدمام الله مخفورة ، فشمرت خنزوانته ، وأنفت شيمته من إمها لهم الى الرجوع الى

(١) بالنون والياء المثناة من تحت والفاء فارسية ، معربة اصلها (نيم أو) بمعنى منتصف لواء ، والأمر كذلك ، فإنها في منتصف الشط ما بين (المنيثر) و (القبان) . (منه) .

معسكرهم آمنين ، والقفول الى مضاربهم غير مذعورين ، فأمر رجاله بالعبور إليهم ، والوصول إليهم ، فعبرت رجال كَأَن الأمواج ابناؤهم ، والبحار آبائهم ، كأنهم التنانين والتماسيح واستجنبوا جنائبهم فكانها خيل البحر ، لا خيل البر ، قد امتطوا مطايا من أدُم يقطعون بها جوارى المياه ، واستجنبوا الجنائب فكل فرسه وراه . فعبروا ، وركبوا ، وركضوا ، حاملين حملة منكرة يهتز لها شناخيب ^(١) الجبال ، فما حال الرجال ؟ فانهمز الأعداء من بين أيديهم لا يلوي أحد منهم على آخر يدق بعضهم بعضاً ، لا يعرفون سماءً ولا أرضاً ، يدفع الثاني الأول فيطرحة ، ويصدم الثالث الثاني فيبطحه ، فلما فصل الليل مسافة أبصارهم وصرفهم الى استقرار أفكارهم ، أمرهم بالمبيت في طرف العدو وأيدهم من رماة السهام والبنادق بجمع كثيف ، ورهط منيف ، وسمعت منه - سلمه الله - يقول : أطمع الأعداء في لقائنا اليوم الثاني قلة ما شاهدوا من العسكر وأطمع العسكر فيهم خورهم وجبنهم مع كثرتهم فلما أصبحوا أردفهم بمن عنده من الأجناد ، وضراغم تلك البلاد ، فلما أخذت الشمس في الارتفاع لم يشعروا إلا والارض قد ماجت ببجور الدروع والمناصل ، وغضت بجبال الكتائب والجحافل ، وأقبلت الأتراك بأسرها قد ملأت الخافقين بالسلاح ، متداعين الى التصادم والكفاح ، لا يقع البصر إلا على فرس صاهل ، أو فارس جائل ، أو بيضة ساطعة أو حربة لامعة ، فتهاقت فرسان الصدام ، وملوك ديار النجدة والاعزام ، مستصرخين بعضهم بعضاً ، يبكي كل في وجه صاحبه غيرة ومسابقة الى بذل النفوس ، والسماح بالرؤوس ذباً عما يوجب وصمة النقص من ذل الانكسار وشناعة العار ، يتخيل كل منهم استيلاء هذه الفرقة التي تهلك النسل والحرث ، يقتلون الرجال ويستبيحون العيال ، ولا يفرقون فيهم بين حرام وحلال ، ودنا الفريقان بعضهم من بعض ضرباً بالسيوف البواتك ، وطعنًا بالرماح القواتك ، ورضاً للهامات تحت النزائك ، وظلت رحي الحرب تعركهم بثقالها ،

(١) جمع شناخبات رأس الجبل وأعلاه .

وتدور عليهم بأثقالها ، وتكاثر الأتراك حتى كادت الدائرة أن تكون لهم ، ومولانا - سلمه الله - ينظر اليهم والشط حائل بينه وبينهم ، فلما أحسّ منهم الوهن صرخ بمن معه من خواصه المتخلفين عنده من الذين أعدهم لتفليق الهام ، وإلحام الصدام ، وأمرهم بالعبور ، واستجذب هو بنفسه حصانه المشهور ، بغزالان الذي قلت فيه عند قدومه من الأحساء :

أتانا الهنا لما أتانا غزالان^١ حصان اذا شافوه أهل الغزالانوا

وعبر الشط . فلما نظرت رجاله إلى القائه بنفسه لاسعادهم ، وإقدامه بروحه إلى إمدادهم ، حملوا متنادين بالشعار الذي أعدوه في المضايق ، وركضوا الركضة التي عودوها لتفليق هامات الفيالق ، متراكضين الى لقاء الموت ، متسارعين إلى النصر أو الفوت .

متسابقين إلى إلحام كائنهما يتسابقون إلى لقاء حسان

فتداعت الزحوف ، وتخالطت الصفوف ، وخطبت على منابر الرقاب فصحاء السيوف ، وثارَت عِجاجة أخذت الأرواح من الأشباح ، واذهلت النفوس عن الأرواح ، ونثرت الرؤوس بأ كف الصنّاح ، وعطلت الرجال من وقع السلاح ، وظلت ألسن السيوف تروى حديث النفوس ، وأيدي الخيل تلعب بأ كَر الرؤوس ، ترد الجياد من القتلى على جبل ، ومن دمائهم يخضن في وحل ، ومن جماجمهم يصعدن في نشز ، ومن ذوائبهم يقمصن في شكل ، فلم يلبث أن أسفر قنّامها عن مساقط أبدان تحت ابدان ، واجسام فوق هام . فانكشف فلّهم الذي أفلتتهم الصوارم ، واخطأتهم أنياب الضياعم ، عن مضاربهم ، وانزاحوا عن مرابضهم ، ورجعت عنهم الخيل المنصورة ، بالرجال المعروفة المشهورة ، يتلاعبون تحت القنّام ، تلاعب النجوم تحت الغمام ، بل الاشبال في الآجام ، قد أسكرتهم خمور النصر ، وأمّالتهم كالغصون أرواح الظفر ، فيالك من يوم ثلجت فيه القلوب بعد الاضطراب ، وسكنت النفوس بعد الاضطراب والاصطدام ، وعاد مولانا بمن معه ظافراً

منصوراً ، وعزم على أن يركب في اليوم الآخر بجميع ما يحويه المعسكر هاجماً عليهم الى مستقرهم الذي هم فيه ، وموضعهم الذي عرجوا عليه ، وان يلقى عليهم الحرب في طرفي البر والبحر ، ملتقياً إليهم بالصدر ، الذي تضيق الأرض عن رحبه ، والعزم الذي تتباعد الصوارم عن قربه ، فجمع الرجال ، وفرق الاسلحة والاموال ، وذكر لي (حفظه الله) إنه بينما كان مشتغلاً في ذلك سمع أصوات المدافع والاتفاق ، قد طبقت الآفاق ، فأصغى هو والحاضرون الى ذلك الهول ، وظن الناس ظناً متاخماً الاعتقاد أن القلعة قد افتتحت ، وان الامم التي فيها قد قتلت ، فبعث جاسوساً يأتي بالخبر ، وحلول هذا الأثر ، فأتاهم بشيراً بالنصر والظفر ، وان العدو قد انكسر ، وقد ترك الخيام ، والميرة والطعام ، والخيول والانعام ، بل الجواري المنشآت في الجبال كالاعلام ، فغنم ما في معسكرهم وأقام مدة يصلح ما اختل من أمور تلك الأطراف ، وينعم بالتلافي لما حصل فيه الإلتاف ، وكرّ راجعاً يسوقه النصر ، ويقدمه الظفر إلى مستقر عزه ، ومستند مجده ، وكان دخوله بالعساكر المنصورة ، في اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور من السنة المذكورة .

وفي هذه السنة المذكورة نزل القلعة المعروفة (بالقرنة) لمصادمة الخان المتقدم ذكره وظهر له ما كان قد أضمره بعض اعداء الدولة كالحويشي وناصر الدين وابن عليان ، وقد قدمنا انه — سلمه الله — قد استصحب معه عيسى الحويشي وناصر الدين الزبيدي في سفر القبان ، وكانا قد اغتناما منه هذه الفرصة واشتغاله بتدبير القلاع المشرفية من البصرة ، فتعلل ناصر الدين الزبيدي وكر راجعاً الى القرنة وهو يومئذ أميرها وانكفأ الحويشي الى نهر عنتر مطعمعاً انه يأتي ببقيّة عسكره ويلحق بالقبان ، وكانا قد جعلاً كلاميهما واحداً في امر العصيان ، فلما رجع الخان الى الحويزة لحرب السيد منصور خان بن السيد مطلب الحيدري وظفر باخراجه من الحويزة ونصب ابن أخيه السيد محمد خان بن السيد مبارك في موضعه ، تواترت رسل اهل الجزائر الى الخان يستقدمونه الى قلاع شط العرب ، ومن جملة

من أرسل اليه واطمعه في ذلك محمد بن حسن الديري صاحب قلعة السويب فسمع بذلك صاحب السعادة أيده الله فركب بعساكر البر والبحر وجعل معسكره في خارج القرنة ، فلما بلغ الخبر أهل الجزائر وأمراءها لم يسعهم التخلف عن خدمته ، فجاءوا بأجمعهم ، ومنهم ابن عليان والحويشي ، فلما سمع الخان بوصوله الى القرنة واستقراره بجميع عساكره فيها ، لم يجد بداً من فسخ العزيمة عن الوصول ، والتصميم على القبول ، فكرر راجعاً الى بلاده . وفيها استقبل مولانا الباشا حضرة السيد منصور خان ، بعد خروجه من بلاده الى النهروان .

ذكر خروج منصور خان ولقاء مولانا الباشا اياه

قد ذكرنا أن الخان عطف من حرب القبان الى اطراف الحويزة ، وكان السيد محمد خان ابن السيد مبارك خان قد استنجده لمحاربة السيد منصور خان ، فلما سمع منصور خان بقدوم الترك ترك البلاد لابن أخيه وخرج الى النهروان ، فركب مولانا الباشا لاستقباله ، وكنت يومئذ معه ، فغضت الارض والفضاء بالخييل والرجال ، وشرقت دجلة - بالشرع والادقال ^(١) ، واتفق ذلك المسير ، والارض قد أخذت زخرفها وآزيت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، فوردت فيها خدود الشقائق ، وفرشت الأزهار فيها الخماق ، وبرت عيون النرجس الى عجيب صنع ربها ، وأومت أصابع المنثور الى جوانب وهادها وكشبهها ، فكانه نظر اليها بقوله - سلمه الله - .

طاف الربيع بأكناف البلاد وساد

وحل بالمسك من طيب الورود كساد

والعشب اضحى لأطراف الاراضي ساد

حتى غدا منه للنائم غطا ووساد

(١) جمع دقل . خضبة طويلة تقام ثابتة في وسط السفينة يمد عليها الشراع .

نعم : —

ما الدهر الا الربيع المستنير اذا جاء الربيع أتابك النور والنور
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلّور
من شم طيب رياحين الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور

فالتقيا في موضع في غربي القلعة المسماة بالزكمة ، وزلا وأقام له ولمن معه الضيافة والنزّل ، واعطاه من الخيل والخلع والنقود والعروض شيئاً كثيراً ، وفي هذه السنة المذكورة انهزم الخواجة عبد الواحد من البصرة الى الحويشي .

ذكر السبب في انهزام الخواجة عبد الواحد الى الحويشي وما آل اليه أمرهما

كان هذا الرجل قبل اتصاله بخدمة هذه الإمارة وزيراً للسيد مبارك خان الحيدري متصرفاً في أموره ، فلما مات وجلس ابن أخيه السيد راشد خان في مكانه قبض على الوزير المذكور وانتهب داره ، ثم أفلت من الحبس لأسباب يطول شرحها وقدم على افراسياب باشا ، فنصبه في منصبه ، وسلم اليه أموره ، وأقره مولانا بعد وفاة والده على ما كان عليه عند والده ، وكان يتولى تدبير أمور الإمارة من مخاطبات الاصدقاء والأعداء ، وكان محسوداً فيما بين الناس لموافقة الحكومة إياه ، وافراط توجهه لمولاه ، وكان يُسَرُّ الى صاحب السعادة ما يُلقى الوحشة بينه وبين أختانه على كرائمه مثل علي آغا المشهور بابن الهزلي وجمعه آغا ، ويسعى بما يثير الفتنة بينه وبين غلمانه ، لكنه لم يصادف قبولاً ، فعادت معاريف كلامه فضولاً ، فاتفق يوماً انه آتى على جاري عاداته ، فمنعه البواب من الدخول ، وكان حينئذ على آغا المقدم ذكره جالساً عند صاحب السعادة ، فرجع الخواجة المذكور وهو لا يشك في افشاء ما اسرّ الى الباشا ، فلما علم الباشا بوصوله ورجوعه استدعاه فلم يرجع ، وأقام في بيته أياماً ، ثم ارسل اليه الباشا الأمير خليل بك يدعوه ويستميله ويعتذر اليه ، ان الهفوة التي صدرت من البواب ، لا تستوجب مثل هذا الاجتناب ، فلم يزد إلا الاصرار ،

ولم يجب بتوبة ولا استغفار ، وأقام في منزله مجانباً أمور الديوان ، والدخول في أمور السلطان ، هذا واقطاعاته دارّة عليه ، ومقرراته واصله اليه ، فلم يلبث على ذلك حتى أوحشه بعض من كان يأنس به وخوفه من القبض عليه ، وانتهاب ما في يديه ، ولم يزل ذلك ينمو في قلبه ويزداد ، حتى لم يجد له ما يثلج به الفؤاد ، سوى الهزيمة تحت أردية الليل ، والركوب في سفينة حذراً من لحوق الخيل ، فقدم على الحويشي ، وكان ذاك في شهر رمضان من السنة المذكورة .

ذكر وقعة الحويشي وهو عيسى بن محمد الحويشي

كان هذا الرجل في مفتتح امره ، وبدوّ حاله ، من أواسط الناس بل ممن دون الأواسط فلزم باب الديوان ، ورقّت به أحوال الزمان ، الى أن شملته عناية مولانا سلمه الله وأبيه من قبله ، غير انه بلغ في زمان صاحب السعادة - بلغه الله مراده - الى ان استقل بأمور الطرف الصالح من مملكة الجزائر ، ودرّت عليه أخلاف الدنيا ورضع ثدي السعادة ، وكثرت أمواله وأموال أخيه الأمير (علي الحويشي) ، وحشدوا خلقاً كثيراً من الرجال ، وكماة الابطال ، وكان ممن قدمنا ذكرهم من الأعداء المسكّاتين ، والجماعة المنافقين ، فلما رأى مضي مولانا دام عزه الى حرب (القبان) في الكلام المقدم ذكره ، كان في جملة العسكر مع يسير من أتباعه فاستأذن في الانصراف الى الجزائر ليهيئ عسكره بالكلية ، ويرجع الى الخدمة ، فاغتتم الفرصة وبعث الى من كان معه في طريقته الرّدية ، وعقيدته الفاسدة ، من الأعيان في البصرة يستنصّحهم في الخروج عن الطاعة ، وركوب جادة الشناعة وخسارة البضاعة ، فأجابوه بقول الشاعر :

لقد عرضت فرصة في العدو فلا تبدأ الرأي إلا بها

فضرب بطبل العصيان ، وركب متن العدوان ، وحبس الأمير زنبور وهو ضيف عنده

قد أئحدر من مدينته الى البصرة ، فرغب مولانا سلمه الله في خواصه من الأعيان أعني
الأمير عبد العزيز خال ولده السعيد الرشيد حسين بك وجمعه آفاختنه على كريمته وعمر آغا
ابن حبيب صاحبه القديم وعمر آغا القبطان وباقي المتجندة من أهل البصرة والغرباء الذين
استخلصهم لنفسه ، ذلك في شهر ربيع الثاني ، وكان من جملة الأمراء الذين أظهروا
الفساد ، وطفوا في البلاد ، من المتفقين مع الحويشي ناصر بن ناصر الدين الزبيدي ، وهو
من الذين شملتهم عنايته وعناية أبيه ، ورفعهم من حضيض الذل الى اوج العز
فشحن قلعته المسماة (بالقرنة) قديما و (بالعلية) الآن بالرجال والأسلحة ، وحشد من
الجزائر فيها خلقا كثيرا ، فلما بلغ هذا الخبر مولانا — دام مجده — أناخ بكل كاه عليه ،
وتوجه بالعساكر المنصورة اليه . وأشار الأمير عبد الله بن مانع أمير البوادي بالنزول على
الحويشي وقلعته المسماة بنهر (عنتر) ، فلم يلتفت اليه ، ولم يعول عليه ، لعلمه انه من
المنافقين المكائمين ، وكان في القرية المسماة (نمر يره) قريبا من القرنة جماعة من مخلصي
مولانا ، فعبر عليهم عسكر ابن ناصر الدين لينهبوهم ، وكان ذلك بمرأى من الباشا
— مد ظله — ومسمع ، فأمر أمراء المقدمات والسفن أن يصلوا الى إمدادهم ، ويجهدوا
في إسعادهم ، فأخذتهم الرياح في شط القرنة فخالوا بين العسكر الخارجين للغارة والنهب وبين
قلعته فانكفؤوا راجعين وكرّوا قافلين ، فأخذهم أطراف العسكر وخرجت الرجال الذين في
السفن إلى البرية وأحاطوا بالقلعة من الطرف الغربي ، فساء صباح المنذرين وابتدروا اليهم
فكانوا لهم لقمة جائع ، حتى تهافتوا من أعلى القلعة ، تهافت الفراش على المصباح ، وتطايروا
الهباء تذرّوه الرياح ، منادين الأمان الأمان ، وحاك بالذين كفروا مكرهم ، وأقبل والي
القلعة ومن معه من الأعيان ، المتبعين له بغير احسان ، متضرعين من سوء أعمالهم متنصلين
عن قبح أفعالهم ، فشملتهم عنايته ، وعمّتهم رأفته ، فكأنما خاطبه المتنبّي بقوله فأجابه الى
ما سأل ، وفعل الصنح الذي فعل :

تفضل أيها المولى عليهم فان الرفق في الجاني عتاب

ثم أمر بتقويض الخيام ، وتبادر الكهاة الأعلام ، الى فتح نهر عنتر وذلك في الشهر المذكور فنزلت العساكر المؤيدة ، وصادف نزولها خروج الحويشي وعسكره لانتهاج الشرش وبعض الرعية بالقرب من ذلك المكان ، فتطايروا اليهم بعض الشبان للقتال ، وأحداث النزال ، والتحمت الحرب وتكاثف الجيشان من الطرفين . هذا ، وهو — سلمه الله — لم ينزل عن جواده بعد ، وحكى لي أن ذلك اليوم مما لم يمرّ على أحد ممن سكن البصرة السماع بمثله ، أو المشاهدة لشبهه ، وزحف عسكر الحويشي الى مقابلهم من الأجناد حتى ضايقوهم والجؤوهم الى قريب من الخيل وكان بندق الأعداء يمر على رأسه — سلمه الله — وهو لا يتضعع عن مكانه .

وقفت وما في الموت شك لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

وأشار عليه بعض أرباب الأفكار القصيرة ، والهمم الحقيرة ، أن يتأخر عن ذلك الموقف بحيث لا يصل اليه سهام الاتفاق ، فلم يعجباً بقوله ترفعاً منه عن أن يقال قد زلله الحويشي عن مرسى قدمه ، وأغاثة خدمه .

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من دون أخمصك الحشر

وكان أبا فراس قد تكلم على لسانه فقال :

ولم أجد إلا فراراً أشد من المنية أو حماما

حملت على ورود الموت نفسي وقلت لصحبي موتوا كراما

واستمر القتال والجدال بين الفريقين من الصباح الى الظهر وذلك في يوم كيوم

السَّنْفَرى حيث يقول :

ويوم من الشعرى يذوبُ لُعاْبُهُ أفاعيه في رمضائه يتملـ

فأهب الله رياح نصره ، وأمطر سحاب معونته ، على عساكر مولانا ، فحملوا عليهم حملة منكرة متنادين بكلهم ، صارخين بشعارهم ، فقتلوا منهم مقتلة كبيرة ، فقد الحويشي بها ماله ورجاله وقتل بها أكثر أبطاله ، فانهزم ببقية عسكره الفلّ الذين أفلتتهم السيوف ، وأخطأتهم الختوف ، الى قلعته مكسور الباس ، مخزياً بين الناس ، نادماً حيث لا ينفع الندم ، تعصيه اليد ولا تطيعه القدم ، وأقام على ذلك حتى قبض عليه وعلى أخيه وعلى الخواجة عبد الواحد ومن معه .

ذكر السبب في القبض عليه

كان الأمير نعمة الله بن محمد بن السلطان أحد الأمراء من ذوي البيوت ، وكان قد شملتته عناية مولانا الى أن جعله أعز كل رفيق ، بل في مرتبة الأخ الشقيق ، بعد أن غيرت أحواله ، وساعات معيشته فالجأ الى نفسه ، وأمره في بلاد أبيه ، واستقام حاله حتى أطاعته أهل تلك الأطراف الذين لم يطيعوا أباه من قبله ، وكان فيما بينه وبين الحويشي عقد أخوة وعين على الاتفاق ، في الوفاق والشقاق ، وكان مولانا قبل الخروج من البصرة قد أراد من الأمير نعمة الله أن يحتال في وجه تمكينه من القبض على الحويشي وهو عالم باتفاقهما لكن آراءه مقرونة باليمن ، وبذلك له رغائب الأموال فاستحلفه الأمير نعمة الله بن عليان على قتله اذا هو قبض عليه ، وآتى به إليه ، فأجابه الى ذلك وكان الأمير المذكور ممن يروم العصيان في الجزائر ، ويعتقد أن الحويشي اذا لم يقم بامرهِ ويوافقهِ على سعيهِ لم يتم له حال ، بل ربما قام الحويشي بحربه دون غيره من الرجال ، فاراد ذهابه حتى لا يبقى في تلك الديار من يمكنه المقاومة له اذا خرج على الطاعة ، فلما انصرف الحويشي الى قلعته مكسوراً ، ورجع العسكر الى المعسكر منصوراً ، تمتّى له أن يستنجد بالأمير نعمة الله ، ورأى ان لم يصل بنفسه اليه لم يذكر العهد القديم والود السابق فركب اليه وهو يومئذ في بلدة المسـمى بنهر صالح ، فلما استقر مع قليل من اصحابه قبض عليه

وارسل من يبشر مولانا بفناء اعداده ، وكبت حساده . ولم اتشرف بملازمته في ذلك السفر ، بل سمعت منه - سلمه الله - يقول لي كنا جلوساً عتمة فسمعنا صوت شخص ينادي من وراء الشط عبّروني فان عندي بشارة ، فامر عمر آغا القبطان من اتى به فكانت هذه البشارة ، ولما وصل خبر القبض عليه الى اصحابه - واخوه الأمير علي وخواجه عبد الواحد يومئذ بالقلعة المسماة بالرحمانية - قصمت ظهورهم ، واستعجمت عليهم أمورهم ، وزحف اليهم العسكر فأخذوا أخذاً وبيلاً ، وقتلوا الثلاثة ، وأقام الله ما أرادوا اعوجاجه ، فسدّ منه حاجة ، وهو ولي الاعانة والتوفيق ، وللمتكلة عليه خير رفيق ، ثم دخلت السنة الخامسة والثلاثون وكان فيها حرب ابن مانع وغدره بالأمرين مراد بك و خليل بك ختني الباشا - مد ظله - .

ذكر حرب بن مانع وغدره

هو عبد بن مانع المنتفقي أمير بادية البصرة وتوابعها . كنا قد قدمنا أنه من جملة الذين كتموا العداوة ، واظهروا الطاعة ، ترقباً للفرصة ، وملاحظة للغرّة ، والأمير نعمة الله بن عليان أمير الجزائر ممن يوافقه على ذلك ، ويسلك معه تلك المسالك ، فعنّ لهم رأي نزع الطاعة ، وإظهار الشناعة ، فدغّر - أي هجم - ابن عليان على القلعة المعروفة بالمدينة والقلعة الموسومة بالفتححية ، وكان واليها يومئذ الأمير زنبور أحد أعيان الإمارة ، وبث جيوشه عليها ، واشعل نار الحرب بينها ، فورد الخبر على مولانا - دام عزه - وكنت حينئذ في خدمته في بيت عبد القادر افندي ختن الباشا المرحوم على كريمته في ضيافة اعدّها له ولأعيان مملكته ، فلما سمع بهذا الخبر قال موالياً بديهةً ، وهي من الكلام الذي يتضمن الكشف فانه ذكر فيها ما لم يكن معلوماً وهي :

طاوعت يا ابو سعيد أشرار عدوانك
حتى علينا ظهر سعيك وعدوانك

والمصطفى لو بسى بالشر بدوانك

لك يوم ما ينفعك حضرك وبدوانك

لقد كان فيها إشارة الى أن البدوان معه في ذلك الأمر ، وأنهم لا ينفعونه ، فظهر في تلك الواقعة غدر ابن مانع بمولانا وأخطاؤه القصدية ، وأخذه للأميرين المذكورين ومعاونته لابن عليان حتى أظفره الله عليهما ، فلما فرغ من انشاء المواليا أمر بأن تتركب العساكر في السفن والمقننات والغربان ، وتُشحن آلات البحر بادوات الحرب . وتقدم العسكر وذلك في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة ، وركب هو وخاصته والذين تخلّفوا ولم يسيروا في السفن ، فساروا من طريق البر ، فلما تجاوز الموضع المعروف بالدير مر على مضارب لجماعة من أعراب المنتفق مقدمهم حمدان بن زوين فعزم عليه أن ينزل عنده وكانت تلك مكيدة منه يستعمله حتى يأتي ابن مانع فيصادف الغرة منه ، فبات تلك الليلة وقد علم ذلك منه بأمارات منها أنه لم يوف الخدمة من القيام ، بأمر الطعام ، الذي يجب لمثله على مثله ، وأصبح وقد عصمه الله من شر مكيدته ، وركب ابن مانع الى الموضع المعلوم بينه وبين حمدان ، ففاته المراد وكرّر راجعاً طامعاً في البصرة لخلوها من العساكر ، فصادف في ققوله الأميرين المذكورين ختاني مولانا على كرائمه وجمعه آغا أحد الأعيان قد خرجوا بعسكرهم في أثر العسكر ونزلوا في أرض الدير ، ونصبوا خيامهم للقيولة فأنفذ سهمه ، ونفث سمّه ، بالقبض عليهما ، وأخذ ما في معسكرهما من الخيل والاسلحة وغنى عن جمعة آغا وأطلقه لحبة اكيدة كانت بينهما ، وزحف الى البصرة محاصراً لها ، فلما بلغ الخبر الى مولانا دام مجده وهو يومئذ في الموضع المعروف بالقرنة أرسل من رماة السهام جماعة ، وأمّر عليهم ربيع بلو كباشي وعباس قلي الكردي الى البصرة ، ونهضت مواكبه المحفوفة بالنصر ، وجحافل المعوذة للظفر ، ونزل بظاهر الفتحية لمحاربة ابن عليان ، وكان قد استخلف على آغا على البصرة ، فورد ابن مانع الى البصرة محارباً ، وأين هو من

ذلك !! فأنها مشحونة بالناس ، من ذوي الباس ، فأقام أياماً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في المحاصرة لفقده البصيرة ، وليتها الباصرة ، وظهر عجزه عن المقاومة ، ونكوله عن المصادمة فانكفأ الى قلعته المسماة (كوييدة) وحبس الأميرين فيها ، وعلم أنه أوقع نفسه في أمر عظيم ، وخطب جسيم ، وجلس ينتظر ما يؤول اليه أمر ابن عليان وخشي إن تطاول جلوسه واصراره على غدره حتى تدور الدائرة عليه ، لم يقبل منه عذر ولا تؤخذ فيه شفاعا ويكون عاقبة الأمر الفتق ، الذي لا يرتق ، أو تذهب دولته ، والجرح الذي لا يوسى أو تزول نعمته ، فألقى الشفعاء كالشيخ الجليل محمد بن احمد المحلي المفتي والشيخ طه بن عبد السلام واصحابها من أرباب العمام واصحاب المناصب ، بينه وبين مولانا متصلا بعذره تأبئاً من غدره ، فصادفوا منه العفو الذي اعتاده ، والصفح الذي جعله شيمة وعادة ، فارسلوا اليه ، بما وقفوا عليه ، فركب هو وإخوته وأطلق الأميرين وأتى بهما صحبتته ، ورد عليها ما أخذ منها من الخيل والسلاح ، وأتى وهو متردد بين أمرين خشية السيف التي تأمر بالعود الى قلعته ، واعتقاد العفو من الباشا الذي يحثه على المسير الى ولي نعمته ، فوثق بالسلامة لما يعهد من حسن أخلاق مولانا واستعماله فنون المحامد ، واحتماله لاجلها المصائب والشدائد ، وقدم عليه في العشر الأواخر من الشهر المذكور فتلقياه بالبشر والألفة وحسن الخلق كجاري عادته ، وصفح بمقتضى شيمته ، وسأله العفو عن ابن عليان فأجابه الى سؤاله وأمر العساكر بالانصراف عن محاربتة ، وأظهر الرضى عليه بابقائه على بلاد أقطعه إياها ، وكانت في يديه ، وكنت من جملة الحاضرين في ذلك الموقف ، وكان ممن حضر هذه الواقعة تحت لوائه من العسكر اربعة عشر الف نفس لاني سألت القيم بأمر طعامهم من مطابخه وأنباراته فأجابني كما ذكرت ، ومن جملة من حضر في تلك الوقعة الأمير أبو طالب بن ناصر ابن سناله القشعبي أمير امراء العرب العراقيين وكان هو وعسكره ممن تدر عليهم الميرة لهم ولدوا بهم ، فلما قضى أمر هذه الحادثة كما شرحناء خفقت أعلامه وراياته ، وماج البر بخيله

ودبّاباته^(١) والتطم البحر بغربانه ، ومقنّماته ، قافلاً بالنصر ، راجعاً بالظفر ، ملتحفاً بعز الله متشجّحاً بعنايته ، مكفولاً بنصره وكفايته ، ومعه الأمير أبو طالب فدخل البصرة وأفاض سحاب إحسانه ، وأجرى بحور امتنانه ، على الأمير المذكور وعلى عسكره ، من النقود والعروض والخليل والسلاح والخلع والميرة ، وعلى أعرابه المنتسبين إليه القشعميين والخالديين بما لا مزيد عليه ، ولم يصل قبله مثله إليه .

ثم دخلت السنة السادسة والثلاثون وفيها افتتح سلمه الله القلعة المعروفة بـ (كوييدة^(٢)) بعد أن هزم عنها عبد الله ابن مانع المذكور آنفاً .

(ذكر السبب في ذلك)

قد قدمنا ما وقع من غدره بالأمرين المذكورين واشتماله بالعفو والصفح فلم يزد ذلك إلا خبث سريرة ، وإعمال مكيدة ، وجعل يتعلل إذا دعى ويصادق الأعداء خفية فلم يدم له ذلك برهة حتى حشدت عليه العساكر وتم أمر الركوب ، فركب مولانا في شهر ربيع الأول المبارك من السنة المذكورة ، وقد أرجف أنه ومن معه قد حلفوا بالطلاق ان يصدموا قلب العسكر ، وكان هذا الإرجاف الجزء الأخير من العلة التامة لقلعه ، والسبب الأكبر لقمعه ، فلما خفقت الأعلام ، وتمازحت أبناء الصدام ، وغصت الأرض بالجحافل ، وسترت الشمس بالقساطل ، ولم يزد الحلف إلا نكولاً ، ولم توله الأيمان إلا فراراً وأفولاً ولم يلبث حتى يرى السيوف مصلتةً ، والأسنة مشرعةً ، بل طار حين رأي الغبار ، وانهزم وندم ، حيث لا ينفع الندم ، وما أجدره بقول أبي الطيب يخاطب ابن شمشقيق حين حلف برأس الملك أن يلتقى سيف الدولة ويأتي به أسيراً :

(١) آلة تتخذ في حصار القلعة كانوا يدخلون في جوفها ثم يذهبون إلى أصل الحصن فينقبونه ، فهم في جوفها بأمان مما يرى إليهم .

(٢) بالباء الموحدة والdal المهملة تصغير كايده مشتق من السكيد وهو احتراق القاب أي المحرقه قاب العدو .

عُقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم
وفي اليمين على ما أنت واعدته مادل أنك في الميعاد متهم
ألى الفتى ابن شمس شقيق فأحنه فتى من الضرب تُنسى عنده الكلام
أين البطارق والحلف الذي حلفوا بمنرق الملاك والزعم الذي زعموا
ولى صوارمه إكذاب قو لهم فهن السنة أفواهاها القيم
فدخل بمسكره منصوراً ظافراً الى القلعة وأمر باحراقها كصنع المعتصم العباسي في
عمورية حين افتتحها وأحرقها .

وفي هذه السنة الفت كتابي المسمى بشمر الاستعداد ، وهو كتاب أحببت ذكره وذكر
السبب في تأليفه لأنه شرح دوبيت من نظم مولانا دام عزه ، وكان السبب في ذلك أنه لما
نظمه وأنشدني اياه ، أخذت في تقريره ، والثناء عليه ، وكان من جملة ما قلت في مدحه ،
انه قابل أن يشرح بمجلد ، لما فيه من المعاني الفائقة ، والألفاظ الرائقة ، واشتمل على
صناعة التجنيس المذيل ، والاديب في الكلام عليه والاستطراد بما تسوقه الفاظه ومعانيه
اليه ، مجال يمرح جواد فهمه فيه ، كيف شاء واتى أراد ، فقال المرحوم عبد القادر افندي
ظناً منه ان هذا الكلام جار على منوال ثناء الخادم على المخدم ، وشكر المنعم الواجب
على المنعم عليه ، لقصور بابه عن إدراك مثل هذه المطالب ، - يا فلان هذه مبالغة ، فقلت
له - وقد حصلت بي حدة - هذا الذي ذكرته لك أتمه إن شاء الله تعالى في اسبوع واحد ،
واتفق مسير الباشا - دام ظله - لافتتاح القلعة المعروفة بـ (كوييدة) ولم يلبث في ذلك
الا اسبوعاً واحداً ، فاشتغلت بتأليفه وأتفق اتمامه برجوعه ولم اطالع له كتاباً ، وانما
الفته من محفوظاتي فقط ، والدوبيت الذي شرح بالكتاب المذكور هو :

من كان له حبك كاف كافل

والدمع بوجنتيه جاف جافل

والنوم لمقلتيه جاف جافل

يهواك وعن سواك غاف غافل

والسبب في نظمه انه أنشد في حضرته قول الشاعر :

الورد بوجنتيك زاه زاهر

والسحر بمقلتيك وافٍ وافر

والعاشق في هواك ساهٍ ساهر

يرجو ويخاف فهو شاكٍ شاكر

فنظم هذا الدوبيت ارتجالاً .

وله من الارتجال ما هو أعظم من ذلك ، وذلك أننى كنت جالساً معه في مجلس أبيه في

ضيافة ، فقال والده رحمه الله - ما أحسن قول الشاعر :

الحاضرون بلا حضورك غُيِّبَ والغائبون اذا حضرت حضور

ومراده بذلك مخاطبته به و اظهار اشتياقه الى مجالسته ومحادثته ، والأمر كذلك فانه قلَّ

ان يُسمع بمحبة والدٍ لولد كمحبة الباشا الكبير له مُدِّ ظِلِّه ، وذلك لانه بلغ في طاعته ومراقبته

إياه أنه وهو ذو أولاد لا يستقل بأمر ولو كان الخروج الى المسجد أو الحمام من غير إذنه ،

نخاطبني والده رحمه الله أنه يوجد تجنيس للفظ حضور اكثر من اثنين ، فارتجل - سلمه الله -

بمواليا ، وكان من شدة حيائه من مخاطبة أبيه ينشدني اياها ، مصرعاً مصرعاً ، حتى

حفظتها وانشدت والده اياها ، وهي هذه : -

يا من بنى لاجميل مداين وحضور

لا زلت تعمل على مر الزمان حضور

يا من بسيفك اطاعك بدوها وحضور

إن غبت غاب الجميع وان حضرت حضور

وله من الارتجالات في الأجوبة والتواريخ وغيرهما ما لا مزيد عليه ، بل لا وصول اليه ، فلنذكر من ذلك بعض ما يحضرنا الآن .

منها . - أنه أتى اليه بعض خدامه في سنة إحدى وأربعين والـ ألف فقال : - تأريخ هذه السنة [غلى] ، أشار الى حساب الحروف المتعارف ، وهو المسمى بالـ جمل الكبير فأجاب بـ ديهة لا ولكن تأريخها [رخص الطعام] ، وهذا عندي من المعجزات الباهرات على صفاء ذهنه ، وجودة قريحته ، وانتقاد فهمه ، والله درّه كيف قابل مطلوب القائل المـ كروه عند الخاص والعام ، بضده المطلوب لسائر الأنام ، والمرغوب فيه لغذاء الناس والأنعام ، وهو دليل واضح على اختياره الرفاهية للعباد .

ومنها : - أني كنت جالساً عنده ، فقدم صاحبنا المرحوم المغفور له الشيخ عبد الله الحلي من العتبات المشرفات في السنة الثالثة والأربعين بعد الألف فقال ارتجالاً تأريخاً (جاءك الشيخ الحلي) .

ومنها : - أن رجلاً من الفقراء اسمه (درويش قاسم) وهو ممن يحضر مجلسه فانقطع معتكفاً في أربعينية في سنة تسع وأربعين يستعملها الفقراء وهي ان يجلسوا في مكان واحد أربعين يوماً ويسمى في اصطلاحهم [چله] اذ الأربعين في الفارسية اسمها [چل] ويقال فيها أيضاً [جهل] ، فقال بـ ديهة : (قاسم بچله نشست) أي جلس .

ومنها : - اننا سرنا معه الى الأرض المعروفة (بالدُرهميَّة) وهي الموضع الذي وقع فيه حرب (الجمل) وفيه مشهد (طلحة) و (الزبير) رضي الله عنهما وجامع علي فرأينا غدير ماء كثير جداً فقال تأريخه (ماء غدير بلا نهاية) وذلك في سنة خمس وخمسين لأنه اذا انتفت نهاية لفظ غدير اعني الراء بقي العدد المذكور ، - فقلتُ في ذلك :

جئنا غديراً كثير ماء	مع صاحب الفضل والولاية
فقال : تأريخ ما رأينا	(ماء غدير بلا نهاية)

ومنها : - انه قدم من سمر له إلى منزله بالبصرة فجلسنا عنده ، وكان الى جانبي الأمير خليل المقدم ذكره فتذاكرنا بنظم تأريخ يتضمن معنى انه شرف المنزل بقدمه ، أو أن نأتي بتأريخ يكون فيه لفظ الشرف أو التشريف ، ففهم ذلك منا ، فقال بديهة : (الله شرف قدر كما) وذلك في سنة احدى وخمسين ، ثم أتى بعد ذلك نظمت تأريخين في ذلك ونظمت قطعة حكيت فيها هذه القصة والتواريخ ، فمن أراد الوقوف عليها فليراجع كتابنا الموسوم بقطر الغمام ، في شرح (كلام الملوك ملوك الكلام) .

ومنها : - انه اجتمع عنده قوم من أرباب العهائم ، فتناقلوا الحديث فافضوا الى قوله عليه الصلاة والسلام : (لو كانت الدنيا دماً عبيطاً لما أكل المؤمن منها الا حلالاً) فقال بديهة : نعم لأن المؤمن لا يتناول الا ما هو مضطر اليه وعند الضرورات تباح المحظورات .

ومنها : - أنه اعترض بعض جلسائه على بعض المصنفين في الأعمال الموسيقية وقد صنف تصنيفاً شابه به تصنيف غيره ، فقال بديهة : إن تأليف التصانيف من النغمات كتأليف الكلمات من الحروف ، فقد تتحد حروف بعض الكلمات مع كلمة أخرى وكل لها معنى غير أختها الأخرى ، ألا ترى إذا نظرنا الى زيد وصيد وجدنا ثلثي أحدهما من الآخر ، وكل منهما له معنى غير الآخر ، فاذا حصل في التصنيف فارق بينه وبين غيره ولو قليلاً لم يُعَبَّ ، وصح أن يطلق عليه أنه تصنيف برأسه . وانتقلت من كلامه هذا الى أبواب في فنّ التصنيف وأخذت أصنع بالنغمات والألحان ما يصنع بالكلام من الاختصار والتضمين ونقل الوجيز الى ضده ، وأمثال ذلك كما يظهر ذلك لمن تتبع مصنفاتنا الموسيقية ، وكان ذا ملكة وتدرّب في الفن .

ومنها : - أن أحد مجالسيه صار له ولد سمّاه أحمد وذلك في ربيع الثاني سنة ألف وسبع وخمسين ، فلما نقل اليه ذلك قال بديهة : تأريخه (ولد أحمد في ربيع الثاني) وهذا

من أعجب التواريخ .

ومنها : — أنه نُلي في مجلسه يوماً قوله تعالى (وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون) فسأل بعض الحاضرين عن وقوع (أو) المستعملة في التشكيك في كلام الله تعالى ، وأنه مما لا يجوز عليه ذلك ، فأجاب بعضهم بما هو معروف عند أهل الأدب من أنها بمعنى الواو ، فقال : سلمه الله يمكن أن يقال إن الآية وردت كما ورد قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) من خطاب الناس على ما هو المعمول المتعارف بينهم ، فانهم إذا أرادوا وصف شيء لم يتحققوه ، عبّروا عنه بكلام يشتمل على (أو) لقصورهم عن تحقيقه ، ولهذا الجواب حكاية أوردتها في رسالتي الموسومة (بالنكت الجلسية ، في الدقائق العلوية) فلتطالع ثمة .

ثم دخلت السنة السابعة والثلاثون ولم يقع فيها شيء من الحوادث التي يُسأل لها حُسام ، أو يثار لها قتام ، بالنسبة الى ما مضى ، غير أن نعمة الله بن عليان إغتنم فرصة ، وانتهز غفلة ، من الأجناد في ناحية الفتحية وأبو غربة فأوغر صدور جماعة من أهل تلك الأطراف ، فأنحاز اليه الأمير ناصر الدين بن هاشم أحد الأمراء الأعيان في الجزائر ، فركب سلمه الله في شهر ذى الحجة من السنة المذكورة ، ونزل مدينة ابن عليان ، وأرسل جماعة من الرجال الى جانب الفتحية وأبو غربة ، فبنوا قلعة وصالت عليهم مُتجندة ابن عليان فقاتلوهم قتالاً شديداً ، فهُزموا باذن الله ، وأرسل الشفعاء يسأل العفو ، وأن ينزل له عما في يد الأمير ناصر الدين ، فسبق الأمير المذكور بالمبادرة الى الطاعة ، فانضم الى أولياء الدولة وسمح بابنته لمولانا اشتياقاً لعبوديته فقبل ذلك وتزوجها ، فولدت له الأمير ملك شاه ، ثم اخترمته المنية ، واستلبته الأمنية ، فلما فرغ من شأن ابن عليان عطف راجعاً الى البصرة معتقداً — لصفاء سيرته ، وطيب نيته — إن الاحسان السابق ، والعفو اللاحق ، قد عمل عمله ، وأثر أثره ، في ابن عليان ، فأخلف ما وعد ، وأفسد وفسد ، وعمل

ما يوجب الانتقام ، ويُعرّض لللام .

ثم دخلت السنة الثامنة والثلاثون ، وكان فيها خروج ابن عليان من ملكه وملك أبيه ، وتفرّق بينه وذويه ، وتشريده عن أوطانه ، ومفارقته لأوليائه واخوانه :
وإذا بدت للنمل أجنحة حتى يطير فقددنا عطبه

وكان السبب في ذلك أنه لما دخل في الطاعة ، وأعتذر عما أوجب الشناعة ، وشمله العفو والغفران ، واللطف والاحسان ، أمر مولانا جميع أمراء الجزائر أن ينقادوا اليه ، ويعوّلوا في جميع أمورهم عليه ، وأن يؤدوا ما عليهم من القطائع المالية ، للدولة على يديه ، وأن يكون هو الواسطة بينهم وبين عمال الديوان ، فكانوا يحسدونه على ما هو عليه ، وما انتهوا هم اليه ، فلم يجدوا لهم مدخلاً يشفى صدورهم ، ويقوّي أمورهم ، إلا أن تقف عنه المراحم ، وتستوغر منه الصدور ، ويُتجنب بعد أن كان الصديق الحميم ، ويستغرب بعد أن كان العزيز الصميم ، وليس ذلك إلا باظهار عصيانه ، وإعلان شقاقه وعدوانه ، فدخلوا عليه بأن هذه البلاد ، لك إرث من الآباء والأجداد ، وما يزيدك دخولك في الطاعة إلا ذلاً ، ونحن أولائك ، أولياء آبائك ، من قديم الدهر ، وسالف العصر ، وزينوا له عمله ، فظاهرهم على ذلك ، وسلك أصعب المسالك ، فأعلن بصوت العصيان ، واجتمع عليه خلق كثير ، وجم غفير ، فظن أن ذلك جبل يعصمه ولا عاصم من أمر الله ، فركبت العساكر في البر والبحر ، وتقدمت الغربان والقايات^(١) وحف اليهم العسكر حتى عينوا موضعاً قريباً من قلعته ، وكانت قلعته يومئذ نهر صالح ، فساروا ليلاً الى الموضع ، فشرعوا في هدم بنائه ، فهجمت عليهم عساكر ابن عليان وأمراء الجزائر المظاهرين له جهراً ، المنافقين له سراً ، فقتل أكثر شجعانهم ، وفقد جليل فتيانهم ، وفي تلك الليلة لم يجد بداً من العمل بقولهم : الفرار في وقته ظفر ، فاتخذ الليل جلاً وأخلى القلعة وفر . وكانت هذه الواقعة من الوقائع المشهورة

(١) يظهر أن القايات نوع من السفن كالغربان .

في تلك الديار ، وذلك في شهر صفر من السنة المذكورة ، فورد الى العرجاء ، وحاكمها يومئذ حسن آغا ، وكان ممن ينحو نحو ابن عليان وابن مانع ، فاجتمع رأيها على أن يقصد ابن عليان المذكور إمام قلي خان ابن الله وردي خان المتقدم ذكره ، مستنجداً به ومحركاً له على أخذ ضغائنه من البصرة ، مقتصاً منهم لعسكره المقتول في القبان ، المهزوم هزيمة الضان ، فعمد الى رفقة خرجوا معه ، فصوبوا الرأي وصادف منهم هذا الرأي انحدار الخان مسترخصاً من مولاه الشاه عباس الصفوي في محاربة البصرة فأتحد معه ، وكان مشيره ومدبره في هذا السفر ، وهو أعظم الوقائع وأجل المصائب ، فانه لم يرد على البصرة مثله في الأيام الخالية .

ذكر نزول الخان على البصرة وهو المسمى بوقعة الرباط

قد ذكرنا فيما سبق عداوة الخان لهذه الإمارة المحروسة ، ولم نذكر السبب في ذلك ، والسبب الذي أوجد هذه الوحشة والمنافرة ما حكاه لي سآمه الله قال : — لما افتتح الشاه عباس بغداد وطمع في انقياد الباشا المرحوم اليه ، والتعويل في كل أموره عليه ، فأرسل اليه كتاباً فلم يأذن للرسول بملاقاته ولا أخذ منه الكتاب بل أخافه وأمره بالانصراف من غير ملاقة ، وأرتحل الشاه ، فأرسل مكتوباً ثانياً يتضمن إظهار المحبة والأمر بمتابعة الخان ، إن عن رأي أو تدبير ، فكان ذلك باعثاً لازدياد الوحشة والمنافرة بعد أن كان بين الباشا المرحوم وبين الشاه من إرسال الرسل والهدايا ما لا يخفى على أهل العصر ، فاستحكمت العداوة بينهما : للبصرة وأهلها وحاكمها وأهلها . فلما انحدرا الخان كما ذكرنا ضم اليه الشاهد أكثر عساكره ، وكان طريقه من بغداد فانضم اليه عسكرها وعسكر الخزاغل وحسن آغا وعساكر الجزائر لأنه لم تبق قلعة ولا مدينة من الجزائر وسائر ما يحتوي عليه أطراف البصرة إلا خلت من عساكر مولانا ، فمنهم من ثبت اخلاصه ، ولحق بمولاه ، ومنهم من ظهر نفاقه فوافق أعداءه ، ولم

يبقى سوى قلعة (السُّويب) فإنه شحنها بكافة رجاله من أهل البصرة ، والقلعة المسماة (بكردلان) وقلعة (القبان) فنزل الخان بعساكره في الطرف الغربي من البصرة ، فورد على أهل البلد من نزوله أمر عظيم ، وخطب جسيم ، يئست به الأحياء من الحياة ، وأحسوا وهم أحياء بالوفاة ، فمنهم من أشار بالخروج عنها ، ومنهم من أشار بتسليمها إليه أو الدخول في طاعته ، وثبتت الله الذين صبروا منهم معه مقتدين برأيه ، مستفيضين بتدبيره وآرائه ، وهو مع ذلك لم يظهر على وجهه ما يُظن معه الخور والجب ، وأظهر من عادته من الطلاقة والبشر ما لا يطوف بنواحيه الحزن ، ورتب العساكر المحاصرين معه على مراتبهم ، وكان فيهم من أهل النفاق جماعة كثيرة فطِنَ لهم ، ولم يظهر لهم أنه فهم ذلك منهم ، فخالطهم بذوى الإخلاص من خدمه وعسكره ، وأخذت عساكر الأتراك بعادتهم في محاربة المدائن من النقب في الأرض الممكنة النقب ، ووضع السلام في غيرها ، فكان كلما تقدمت لهم قدم آخرها بضرب المدافع والاتفاق (١) .

هذا شأن البصرة ومن فيها ، وأما السُّويب فنزلت عليه عساكر الخان أيضاً ، ومقدمهم ختنه على ابنته السيد محمد خان ابن السيد مبارك خان ، فألقى الحرب على الناحيتين حتى ساءت الظنون ، وتوقَّعت المنون ، ولم يعلم الغافلون ، أن الأمر موكل إلى من يقول للشيء كن فيكون ، فورد على الخان أن الشاه عباس قد انتقل من دار الفرار إلى دار القرار ، وبُديل بعد العز والسلطان بالاستكانة والهوان ، وأضحى بعد أن كان سلطان الأرض أسير شبر منها ، وعاد إليها كما أخرج عنها ، فكان ذلك أعظم دليل على حظ مولانا واستفحال طالعه ، ونظر الحق سبحانه إليه ، وإضفاء (٢) بردود العناية عليه ، إذ لم تدرك العقول فرجاً لتلك الشدة ، ولا هادماً لتلك البناء ، ودافعاً لتلك الأنداء ، إلا موت كبيرهم الذي

(١) الظاهر أنه جمع تفق معرب تفك أي البندقية .

(٢) من أضفى بمعنى أسبغ .

أمرهم بذلك ، وأسلحهم تلك المسالك .

ومن لم يُوقَّ الله فهو الممزَّق

ومن لم يُردد الله في الأمر كلّه

ومن لم يُعزَّ الله فهو ذليلٌ

فليس لمخلوق إليه سبيلٌ

فارتحل الخان ومن معه وأخذت عساكر مولانا ساقتهم ^(١) حتى أخرجوهم من
الجزائر ، وعادت الأمور كما كانت ، وانفجرت الشدائد وبانت ، ولم يكن له في تلك الواقعة
وذلك الثبات ، والاتكال على ربّ الأحياء والأموات ، والصبر على قضاء الله والانتظار
لفرجه القريب مُشارك أو مُوات ^(٢) ، فكان الغرض الأصلي ، والمطلب السكّلي ، من تقدير
تلك الواقعة محض إظهار شأنه ، وتقوية أركانه ، واهتداء الناس إلى ما انطوت عليه سريره
من الرضى بالقضا وثبات القلب ، نعم : —

وإذا أراد الله كشفَ فضيلة

لو لا اشتعال النار فيما جاورت

خفيت أتاح لها لسان حسود

ما كان يُعرف فضل عرف العود

وهكذا يجب على ذوى العقول الصبر وانتظار الفرج من الذى يجعل بعد عُسْر يسرا ،
وينزّل الغيث من بعد ما قنطوا ، وقد قال سبحانه وتعالى : — [حتى إذا استيأس الرسل
وظنوا أنهم قد كُذِّبوا جاءهم نصرنا فنَجَّيْنا من نِشَاء] ، وقال النبي (صلى الله عليه وسلم)
(لو كان العسر في جُحرٍ لدخل عليه اليُسْر حتى يخرج) .

وكل حزن وإن طالت بليّته

يوما تكشّف غمّاه وتنفرج

وقال آخر : —

الأمن والخوف أيام مداولة

بين الأنام وبعد الضيق متسع

ثم دخلت السنة التاسعة والثلاثون وفيها قتل ابن مانع .

(١) الساقة : مؤخرة الجيش .

(٢) اسم فاعل من آتاء على الشيء : وافقة .

ذكر السبب في ذلك

قد ذكرنا نبذاً من أحواله وما انطوت عليه نيته وسريته من الغدر ، وأضيف الى ذلك أنه لما انحدر الخان إلى البصرة في السنة المتقدمة ركب بعسكره ولحق بالخان بعد أن أرسل اليه الباشا جملة من خواصه يستميله الى البقاء معه والمقام في البلاد ، ورغبه في إقطاعات جليلة ، وعطايا غير قليلة ، فلما انفصلت تلك المصيبة ، واتسع ذلك الضيق قدم الى مولانا من غير أمان ، فأكرمه وأحسن إليه وشرط عليه أن لا يُضمر خلاف ما يظهر من الانقياد ، وجعل من جملة الأمارات الدالة على حسن اعتقاده ، وصفاء طويته أن لا يرسل حاكم العرجاء حسن آغا وشرط عليه شروطاً فقبل ذلك وخلع عليه ، ومضى إلى أهله فلم يلبث أياماً حتى وقف بعض أولياء الدولة على مكاتيب له أرسلها مع هدايا إلى حسن آغا المذكور ، واتفق أنه قد قصد الحضرة بعدها ، فأخذ بذنبه ، وقتل بكذبه .

وفيهما (أي في السنة المذكورة) ركب الباشا لمحاربة حاكم العرجاء ونهب المنتك ورئيسهم يومئذ (حمود بن نافع) فلم يبق لهم ناغية ولا راغية (أي لا شاة ولا ناقة) وأرسل حسن غا الشفعاء بهدايا كثيرة ، وأموال غزيرة ، وخيل عربية ، فخلع عليه وصفح وعفا ورجع الى البصرة .

ثم دخلت السنة الأربعون وفيها مات حسن بك حاكم القلعة المعروفة (بالزكية) وقام ولده مقامه ، فالتجأ إلى ظل مولانا دام عزه ومات فانضافت الزكية وما يلحقها من القلاع كالقلعة المعروفة بـ (أبو سدرة) وقلعة (المكشّف) وما والاها إلى بلاده ، ورتب في القلاع المذكورة من اجناده من يقوم بأمرها ويسدّ خللها وكانت قلعة المكشّف في يد أصحاب السيد محمد خان ، فلما ورد العسكر لأخذ (أبو سدرة) أرسل السيد محمد خان كتاباً يتضمن الانكار على ارسال العسكر لفتح القاعة المذكورة وكان ذلك باعثاً لاثارة الغضب وتسيير

الجند إلى أخذ قلعة المكشف من يده فأخذت بعد أن فر أصحابه منها قبل اللقاء وأنهزموا قبل قرع القنا .

ثم دخلت السنة الحادية والأربعون ، وفيها كانت المصالحة فيما بينه وبين الخان . والسبب في ذلك أن وزراء الخان المقربين كالسيد الجليل الأمير أبو الحسن الفداهاني والأمير (بولاذ بك) أرسلوا كتباً تتضمن المحبة والنصيحة والإشارة بالموافقة ، وترك المخالفة ، نظراً إلى الاعتداد لما سيحدثه الزمان من الاجحاف والاعتساف للطرفين ، فيكون كل منهما ظهراً لصاحبه ومُعيناً له على نوائب الحدثن ، فوقع هذا موقع القبول ، فأرسل هدايا وتحفًا وخيلاً جيداً على يد الأمير خليل بك إلى الخان ، فالتقاه باحسناً ما يُلتقى مثله ، وخلع عليه وأعطاه ورجع في السنة المذكورة .

ذكر واقعة الهندي

وهي من عجائب الوقائع ، ودواهي المصائب ، وذلك أنه حفظه الله لم يزل مُذ كان حجباً للفقراء ، لا سيما الفقراء الذين ينجون نحو السياحة والدروشة ، وينتسبون إلى تتبع الأشعار ومعرفة النسبة التأليفية من الرياضي المسمى بالموسيقى لأن له اليد الطولى في هذين الفنين ، فانه بلغه الله آماله ، وأحسن في الدارين حاله ومآله ، بلغ من ذلك أنه ينظم المعممى في اللسان التركي والفارسي والعربي ، ويوقع اللحن في أدنى زمان على فنون الضروب . وأشعاره وإيقاعاته التي يتعاطاها أرباب هذه الصناعة مشهورة .

وكان هذا الرجل الهندي درويشاً ورد على حضرته فأدناه ودخل مع المجالسين في خدمته ، وسأل منه أن يعطيه قرآناً فوهبه ذلك ، فعزم مولانا دام عزه يوماً على الركوب في السفينة إلى أحد متنزهااته وهو الموضع المعروف بالماناوي الذي قلت فيه قصيدتي النونية ، أمدح بها حضرته :

بمناوينا طربُ الزمان ومرتبُعُ المسرة والأمان

وهي مثبتة في ديواننا العربي ، من أراد الوقوف عليها فليراجعه ؛ نخرج من باب الشط
فلم يشعر إلا والسكين قد أفرّت ثيابه من كتفه الأيمن ، فالتفت فرأى الهندي قد جذب
السكين منه وأهوى إليه بثانية فالتقاها بيدد ، وأخذت السيوف الرجل الهندي من الغلمان
الذين يمشون خلفه فالتفت إليهم وقد منعهم عنه ، وأخذت منه الجروح مأخذاً عظيماً وعزم
سلمه الله على الانصراف لشأنه ، فأشار إليه بعض خواصه برجوعه إلى بيته لكيلا يضطرب
الناس وتكثر الأراجيف ، فرجع وأمر باحضار الهندي ، فأظهر الجنون والصرع ، وسأله
عن السبب الذي أداه إلى أن يفعل ما فعل ، فجعل يقول تارة أمرني فلان بذلك ، ثم يسأله
أخرى فيغيّر ما قال إلى أن استقر قراره على رجل يسمى حمزة من أتباع المرحوم علي آغا
ابن علي شاه بك ختن مولانا على كريمته ، قسكت عنه لأن ما نسبته إلى المذكور ، لا يصدقه
من له أدنى شعور ، لأنه من أشدّ الناس له إخلاصاً ، وأكملهم اختصاصاً ، فأمر بحبسه
في موضع تداوي فيه جروحه ، وأمرّ عليه ميرته وما يحتاج إليه ، وكنت يومئذ في بلدي ،
فبينما أنا جالس على باب داري إذ مرّ بي اثنان ، وأحدهما يتردد على لسانه اسم مولانا دام عزه
فدعوته وسألته عما يقولان ، فكشّ لي هذه القصة ، وسألته عن سلامة مولانا ، فأجابني
بما سرّني من بقائه سالماً ، فنظمت بداهة هذا المقطوع وهو من بحر الرجز المخبون :

سمعتُ قائلاً علي باشا علي باشا ومرّ

فقلت ذا مبتدأ ويحك قل لي ما الخبر ؟

فقال قد ألجمه الهندي سكيناً وفرّ

لكنّه قد عاش قلتُ الجود أخطاه القدر

وكانت هذه الواقعة في شهر رجب من السنة المذكورة ، وقدمتُ إلى حضرته في شهر
شعبان من تلك السنة ، فلما كانت ليلة عيد الفطر سألت منه الأمير عبد العزيز خال ولده

السعيد الرشيد حسين بك دام عزه إطلاق أحد المحبوسين وهو من آحاد عبيد مولانا يسمى كنجي ، فأمر بابطلاقه ، وسألت منه لما أعرفه من كرم طباعه وجميل شيمته العفو عن الهندي فقال : قد أصبت ما في الضمير وأمر بابطلاقه وأمدّه بنفقة وأجلسه في سفينة ، ووكل به جماعة يحفظونه في طريقه من أن يلاقيه بعضُ مخلصي دولته ، وغرس نعمته ، فيناله بمكرهه إلى أن يصل إلى الأحساء ، ويرجعون عنه بمكتوب يخبر عن وصوله سالماً إلى تلك البلاد ، فانظروا يا ذوي الانصاف ، ومُجاني الشقاق والاعتساف ، إلى هذه النفس السليمة ، والجبلة المستقيمة ، التي لم يُخرجها مثل هذا الأذى من أداني نوع الانسان عن حلمها ، ولم تزعزعها القوة الغضبية التي لا تقاومها قوة من الحواس عن تحمّلها ، ولكنها شيمةُ جبل عليها ، وسجيةُ خلق معها .

ثم دخلت السنة الثالثة والأربعون وكان فيها فتح الجزائر .

ذكر فتح الجزائر وافراج أهلها منها

لأبأس ببيان طرف يسير من أحوالها ، وهي جمع جزيرة بالجم والزاوي ويا بعدد راء وهاء ، والجزيرة الارض المحيط بها الماء ، وهي كذلك لأنها شطوط وأنهر وقعت تلك الأراضي بينها ، وأملاك أهلها وضياعهم فيها ، وشطها شط الفرات ، والشطوط والأنهر مشتقة منه من الطرفين وقد اعتنوا ببناء القلاع في تلك الأراضي حتى أنه قد يكون للواحد منهم في قليل من الأرض القلعتان والثلاث ، ولكنهم قوم سخاف العقول قد أخذ منهم الطيش والحق طرفاً قوياً ، وجبلوا على نقض الموائيق والأيمان ، وأرضهم صعبة المسلك ، شديدة المعرك ، لالتفاف غيضا وشجرها ، وإحاطة الماء بها ، وكل من ملك منهم قلعة أو أكثر لقّب بالأمير ، ولم يُسمع في سالف الزمان أن أحداً من الملوك قهرهم ، وأخرجهم من ديارهم ، وكان الباشا المرحوم قد أخذ من قلاعهم بعضها ورتب فيها أمراء من ذوي النجدة

من عسكره ، وأقام الباقين منهم مقامهم ، مصالحاً إليهم على مال ، وجرى مولانا دام عزه على ذلك حتى أبطرتهم النعمة ، وأرنت بهم الراحة ، فوسوس لهم الشيطان الخروج عن دائرة الاعتدال ، والعروج إلى ما لا يُنال ، من التنكّب عن طريق الطاعة ، فظهر من بعضهم ما يخالف شروط الإخلاص ، الذي ليس لهم عنه مناص ، وذلك في السنة الثالثة والأربعين بعد الألف ، واتفق في تلك السنة إزدياد الدجلتين حتى طاف الماء بقلاعهم ، وملك جميع أراضيهم ، واعتقدوا أنهم في مثل هذه السنة لا يُدرك منهم ثار ، ولا يصل إليهم من المكروه غبار ، فركب سلمه الله متصيّداً ، وكنت ممن تشرف بملازمته في ذلك السفر في العشر الأواخر من جمادى الثاني من السنة المذكورة ، ونزل القرنة في العشر الأوائل من شهر رجب وصادف خروجه إلى القرنة الخبر بورود ابن عليان عليهم ، فانهم استقدموه بكتبهم ، ودعوه إلى ما عنّ له من الرأي ، وكان قبل وصول هذا الخبر تتردد السفراء بينهم وبين الأمير زنبور في أن يعطوا بعض أولادهم رهناً على الوفاء بشروط الخدمة وأن يقطعوا على أنفسهم مالاً يؤدونه في كل سنة ، وكان مولانا دام عزه قريباً من الرضا عنهم في ذلك ، فلما علم منهم إسـتـقـدامهم ابن عليان نكب عما عزم عليه أولاً من قبول مُلتـمـساتهم والرضا باقطاعاتهم ورهائنهم إلى الإيقاع بهم والحرب معهم ، وأشار النصحاء بالصلح لعسر ديارهم في مثل ذلك الوقت ، فأجاب إلى ما سألوه ولكنه مشروط بنفي ابن عليان عنهم والقبض عليه ، وإرساله إليه ، فلم يقبلوا فصار من القرنة إليهم في اليوم السابع من شهر رجب ، ونزل ظاهر الفتحية ، وأمر الأمير زنبور والأمير ناصر الدين بن هاشم — وهو يومئذ والي نهر عنتر بصحبة أخيه الأمير أحمد بك ابن الباشا المرحوم ، وكان يومئذ والي نهر صالح والقلاع — أن يوقعوا الحرب عليهم ، ويتقدموا بجيوشهم إليهم ، فزلوا أرضاً يقال لها (طرّيسه) بضم الطاء ، وبزوا فيها قلعة ، فلما تسامت بهم أهل الجزائر وأمرأؤها

لَمُوا جماعاتهم ، وساروا بكليتهم اليهم ، واتفق وصولهم ليلاً فاشتعلت نار الحرب بين
الفریقین ، وكشر الشرّ عن أنيابه من الطرفين ، ومُلئت الأرض من مطر البنادق والسهام ،
ولبست السماء ثوباً من دخان البارود أثنى من برود الغمام ، وثبت لهم عسكر مولانا الذي
عوّده الله أن يُهزَم ولا يُهزَم وأن يَغْنَم ولا يُغْنَم ، حتى نفذت سهامهم وبنادقهم ،
وتبادرت شجعانهم بالسيوف ، فالتقوهم بقلوب أمثال الجبال الرواسي ، والحجر القاسي ،
فلم يرُع الأعداء إلا بروق الصوارم ، ورعد أصوات الضراغم ، فلم يثبتوا لملتهم ، ولم
يصبروا على لقاءهم ، فانهمزوا هاربين ، ولانجاة طالبين ، لايلوي والد على ولده ، ولا يعرف
أحد منهم رجلاه من يده ، واستمرت الهزيمة عليهم ، وقد أخرجوا ما أمكنهم إخراجهم من
العيال والمال ، وأخلوا القلاع من سكانها ، وعسكر مولانا بأثرهم حتى استصفوا ذلك الطرف
الذي هم فيه كله ، وباتوا تلك الليلة في غنيمه لم تُغْنَم من قبل في تلك الديار ، وكان ابن عليان
في الطرف الآخر من الشط ، فلما أحسّ بما جرى على تلك الفئة الباغية ، والفرقة الطاغية ،
أنهمز من عنده ، وأصبح أهل الجزائر الذين في طرفه منقادين متضرعين ، فرّ منهم من ظنّ
ان الفرار يُنجيه ، وقرّ منهم من علم الشفقة والرأفة من مواليه ، فعبر العسكر عليهم ،
وأخذوا القلاع بأسرها منهم ، وأخرجوهم من ديارهم صاغرين ، وكان المفتوح من تلك
القلاع ما يقرب من أربعين قلعة ، فرتب فيها عساكره رجالاً من أولي البأس والإخلاص ،
وكرّ راجعاً إلى البصرة من طريق الشط . وكنت معه في سفينة واحدة ، فبالك من يوم
مُلي فيه البحر بجبال من السفن تسير سير السحاب ، وغربان على الماء كالأفيال على التراب ،
فاذا رأيت ثمّ رأيت الجوّاري المنشئات في البحر كالأعلام ، متتالية كأنها قطع الغمام ، أو
الجبال والآكام ، وإذا نظرت ثمّ نظرت مدائن تمشي على الماء ، ومن شرعها سماء تعاقب
السماء ، قد اختلطت أصوات الطبول بصدي الماء ، فظننت أنه نفخ في الصور ، وامتزجت
ضوضاء العساكر فحسبت أنه يوم النشور ، ودخل البصرة ظافراً منصوراً ، فرحاً

مسروراً ، بما أنعم الله به عليه ، ويسرّره لديه ، وساقه اليه ، وذلك في شهر رجب من السنة المذكورة ؛ وفيها قدم عليه السيد محمد خان بن السيد مبارك وقد تغلب عليه عمه السيد منصور خان ، وأخذ بلاده (الحويزة) منه ، وقد كان فيما بينه وبين مولانا وحشة كما يشعر به ما تقدم ، فلما أخرج من دياره قصد البصرة ، فالتقاء مولانا بأجل هيئة وأكرم ملاقاته ، وأنزله في بيوت ولده السعيد الأمير حسين بك هو وأهله وعياله ، وأدرّ عليهم الجرايات اللائقة لمثلهم ، ودفع اليه على يد الأمير خليل بك والمؤلف جملة جليّة من المال والخلع والثياب والخليل بالسروج المحلات بالفضة مما يليق بمثله ، ثم أنزله في بيوت علي أغا في صدر الشط ، وأقام ما شاء الله إقامته ، وإنعامه تتواتر اليه ، وتترادف عليه حتى ارتحل ، ثم استمر الأمن والسكون والاستقرار على تناسب لذات العيش ، والتشمر إلى اقتناص أنواع السرور ، والإقامة على إيفاء النفوس حقوقها من المشتبهات والمستلذات والجالس المرغوبة ، والمفاكهات المحبوبة حتى دخلت السنة السابعة والأربعون ، وفيها أرسل الأمير خليل بك بهدايا وتحف إلى الشاه صفي الصفوي .

ذكر السبب في ذلك

والسبب في ذلك - كما أخبرني به أدام الله توفيقه - انه لما مات الشاه عباس وجلس موضعه الشاه صفي بن صفي ميرزا بن الشاه عباس وقع في قلب مولانا من عالم الغيب ومستقر الرحمة محبة الموافقة وترك الشقاق ، وكشف الله ذلك على قلب الشاه صفي ، وكان يرسل مولانا ويكلفه باهداء خليل العتاق العربية ، ومولانا لا يألو جهداً في تحصيل ذلك حتى أنه بعث اليه بحصان يسمى شعلان ، قد بلغ ثمنه ألف ثمان ، وهي عبارة عن مائة ألف درهم ، فاتفق أن السلطان مراد خان ركب على آذربيجان ، وافتتح قلعة (اروان) ولم يمض كثير زمان ، حتى نزل عليها الشاه صفي وأخذها وسيّر عسكرياً على أحمد خان

(الكرد) ، وقد التجأ إلى الدولة العثمانية وجمع معه عسكرياً عظيماً يقدرهم (اليوده) المعروف بـ (كچك أحمد پاشا) فظفر بهم عسكرياً شاه وقتل اليوده ولم يبق حينئذٍ في وجهه معاند ولا مدافع ، فسير الأمير خليل بخيل كثيرة تجديداً لما سبق من المحبة ، واستكشافاً لما يضره من أمور الملك وما يتعلق به ، فأكرم مثواه وأقبل عليه بكليته ، ورفع مجلسه وخلع عليه ، وأقام له على الأمراء مراسيم الضيافة ، فأضافوه كلهم ، ورجع سالماً غانماً . وفي هذه السنة حج الباشا دام عزه بالناس ، وقد نظمت قصيدة بأمره تتضمن ما وقع في الطريق من يوم الرحيل من البصرة إلى يوم الرجوع إليها ، لأنني كنتُ معه وليس الخبر كالعريان ، وهي هذه القصيدة : —

بالجد يُستدرك الآبي من الإرب فأكدح ولا تكُ في عجز عن الطلب
ولا تخف كبوة الدهر الخؤون فكم أعطى كثيراً بميسور من التعب
سار ابنُ عمران نحو الطور مقتبساً وعاد للأهل بعد السير وهو نبي
والمرء كالسيف ان لم تنضِ صفحته

لم تذر ذاك خشيبٌ أو من الخشب (١)
واثبت على صدمة الكرب الملم فكم قد فرّج الله بعد اليأس من كُرب
ولا يُنهنهُ بك العُدّال أنهم (٢)
وانظر إلى الملك السامي أبي حسن لم يفرقوا بين جدّ الأمر واللعب (٣)
لما أراد قراع الرجل والقتب (٣)

(١) تنض : من نضا السيف من غمده سلاه الخشب : السيف الصقيل .

(٢) ينهنهك : أي يكملك ويزجرك

(٣) القراع : القرع . القتب : الرجل .

فلا فلا بالمطايا غير مُكثَرٍ
 بصدق قول من اللاحي ولا كذب^(١)
 سرى بنا ومواضينا تحفُ به
 كالبدْر حَفَّ به جيش من الشُّهُبِ^(٢)
 أنى التفتنا رأينا الأسدَ مُطرَقَةً
 تغضُّ عن ليشنا الحَاظَ مُمرَّتَه
 شوس غطاريفُ صيدٌ لو يروم بهم

نَسَفَ الشَّوامخَ لم يُشكَل ولم يَنبِ^(٣)
 من كل أروع قد نيطت حمائله
 في جسد ورد إلى الهيجاء منتسب^(٤)
 دسنا شوى العرب العَرَبَا بلا فشل
 من عزمنا كي تُؤدِّي جزية النشب^(٥)
 وكفُّه والسحابُ الغرَّ يُمطرنا
 ذا بالطعام وذا بالصيد السكب^(٦)
 حتى إذا جازت الدهناء أينقنا
 فرق القرارة في نجد من الهضب^(٧)
 أَلَقْتُ عُزَيْرَةَ مولاها إلى ملك
 أباحه خَلَعاً تجدى على الرُثْبِ
 وسار والسُمُرُ تقفوه وتقدمه
 سُرى الغضنفر بين الأجم والقُضْبِ^(٨)

(١) فلا : فعل ماضٍ بمعنى تَحَلَّل . الفلا : الصجراء : اللاحي : اللائم أي غير مكثَر بقول اللائم سواء كان صادقاً أو كاذباً .

(٢) المواضي : جمع ماضية للصيد القاطم .

(٣) العوس : جمع أشوس الشديد الجري في القتال . الغطاريف : جمع غطاريف للسيد . الصيد : جمع أصيد الأسد . يشكَل : من أشكل الأمر التيس . ينب : من ناب بمعنى رجم أي لم يتردد .

(٤) الأروع : من يعجبك بحسنه وشجاعته . الورد : الأحمر الضارب إلى الصفرة من الخيل ، أو ما بين الكميث والأشقر .

(٥) الشوى : رذال المال . النشب : المال الأصيل . جزية النشب : زكاته .

(٦) الهصيب : المطر . السكب : المنسكب .

(٧) الدهناء : الفلاة . القرارة : ما قر فيه أي حصل فيه السكن لأهل الحضر المستقرين في منازلهم خلاف أهل البدو الذين لا يزالون متنقلين ، وفرق القرارة ما بين البدو والحضر ، أو ما بين التهامية والنجد

(٨) السمر : جمع أسمر الرمح . الغضنفر : الأسد . الأجم : جمع أجمة مأوى الأسد انقضب : جمع قضب لشجرة تتخذ منه القسي .

- حتى أتى الرَسَّ والأبصارُ شاخصة
لا يجسرُ الوهمُ أن ينوى تسنمه
بروجه لا يضاهاها لرفعها
ومذ بغى أهله حلت بساحتهم
أووا مصاليت سراقين دأبهم
مثل السهام انبرت من تحتهم إبل
فقال دونكم ذا الحصن فابتدرت
فإن لالحين وقع في مساكنهم
ولم تقم ساعة إلا وحاكمهم
قاد الجياد مع النسوان شافعة
فتح تيسر في أرض الحجاز لنا
ففارق العربُ مرعاهم وماءهم
وبعد تيسير ذا الفتح المبين لنا
- (١) منّا إلى معقل مستمنع صعب
(٢) وأسفه مجتدى مداراة السحب
(٣) سوى النجوم من المريخ والقطب
صواعق أرسلتها شعلة الغضب
(٤) قطع الطريق بلا ذنب ولا سبب
(٥) مثل القسي متى يرموا بها تُصب
شوس متى يدعها للحرب لم تغيب
(٦) إن يشهد الطفل يوماً بعضه يشرب
مكبل بين أيدي الماجد الندب
(٧) له ، فأولاه عفواً غير مرتقب
دقت بشارته الركبان في حلب
كالجر خوف أسود الغابة الغلب
(٨) بتنا وأعلامنا تهتر من طرب

(١) الرس : اسم موضع فيه بشر . المستمنع المنيع .

(٢) مجتدى : بالبناء للجهد . المدار : الغزير الدر ، يقال سماء مدار أي تدر ناطر ، ومدارة السحب من إضافة الصفة إلى الموصوف أي أن تلك البروج وصلت في العلو والارتفاع درجة تتجدي الرفة من أسسها السحب المرتفعة المطيرة فكيف بقممها .

(٣) القطب : نجم بين الجدي والفرقدين .

(٤) المصاليت : جمع مصلات الشجاع .

(٥) مثل السهام : أي في السرعة . مثل القسي : أي في الانحناء وقت اشتداد العدو .

(٦) الحين . الموت . بعضه : بدل من يوماً ، أي أن يشهد الطفل بعض يوم يشرب .

(٧) مكبل : أي موضوع في رجله المكبل أي النقيد . الندب : السريع إلى الفضائل .

(٨) الغلب : يسكنون اللام جمع أغلب لأسد غليظ العنق ، إلا أنه يقرأ بضمين لوزن الشعر مساحة .

- ولو نشاء ملكنا نجده أجمعها
وصاح بالقوم حاديهم ألا انتهبوا
فسارت الخيل والركبان يقدمهم
جننا (ضريبة) يدعوننا لمولده
وحين لاح لنا أعلام مكة ضج
كأنهم نشروا من بعد ما قبروا
ومذ نزلنا بطون الأبطح انبعثت
طاف القدوم وصلّى واتثنى فسعى
والكل منا قضى فرض القدوم له
واصبحت أمراء الشام تابعة له
- (١) لكنه عندنا تور على غرب
(٢) إنا نخاف فوات الحج والقراب
حامي الدمار على ملجم العرب
(٣) (مران) حتى نزلنا في ذرى الكشب
حج الناس لبيك في ترديد مكتتب
(٤) فالكل يرفل في أثوابه القشيب
(٥) منا النفوس لطوف البيت في التعب
(٦) حتى لقد كاد أن يجثو على الركب
(٧) ثم انثنينا بقلب ريّض طرب
(٨) بصري في زي من للحج متّهب
(٩)

- (١) النور : الزهر ، الغرب : شجر معروف لا يثمر .
(٢) الدمار : كل ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه ملجم : هكذا في أصل الفسحة والظاهر
(مستلجم) بصيغة اسم الفاعل أي موقع العرب في العداوة والحرب من استلجم الرجل نشب في الحرب .
(٣) ضريبة : قرية بين البصرة ومكة . مران : قرية قرب مكة . الكشب : جمع كشيبت للتل من الرجل .
(٤) المكتتب : ذو الكفاية :
(٥) يرفل : أي يجز ذيله ويتبختر . القشيب : جمع قشيب الجريد النظيف .
(٦) الأبطح : مسيل واسم فيه رمل ودفاق الحمى والمراد به هنا أطراف مكة .
(٧) طراب القدوم : أول طواف يقام به الحاج أول ما دخل مكة قبل الوقوف وهي تحية البيت .
صلى : أي في مقام إبراهيم . سعى : أي بن الصفا والمروة . يجثو : من جثا جثوا جلس على ركبتيه
خشوعاً وأدباً .
(٨) الرض : البداية أول ما تراض ، ولقلب الرض المنقاد .
(٩) المراد به الأمير علي باشا ، أي أن أمراء الشام تابعوا الأمير البصري في زي الاحرام ولبسه .
المتّهب : من اتّهب اتّهباً أهبة قبلها ، أي اتّهبه الله بمعنى قبله للحج .

مرّوا على ملكنا السامي وأعينهم
وبعدهم رتب المقدام جحفلة
لنا الوقوفين من نعماء وانصرفت
رمياً ونحراً وحلقاً يقتضيه لنا
وجاء بعد ثلاث من إقامتنا
ليقدم البيت كي يقضي مناسكه
فياله من قدوم سرنا ورمي ال
ونوخ الحاج في بيداء أبطحهم
وكان لي حاجة في الحاج جبت بها
وبان عدوان عدوان وصولتهم
كل يريد انتهاب الحاج مؤتذناً

مكسورة من حيا منه ومن أدب
جاء يملأ فج الأرض باللّجب (١)
بنا لأرض منى رقالة النجب (٢)
لبس النفيس من القمصان والأتب (٣)
أمر بتقوضة الفسطاط والطنب (٤)
فسار بالقوم أهل الزغف واليلب (٥)
عدى بقاصمة للعظم والعصب (٦)
كدأبهم في الثرى في تلسم الترب (٧)
أرضاً ومن كان يبغي حاجة يجب (٨)
بالخيل والرجل والهندية القضب (٩)
من الشريف زكي الأصل والنسب

(١) اللب : ما يشد من سيور السرج في صدر الدابة لينعم استئخار السرج ، وهو كفاية عن كثرة الخيل وركبانها .

(٢) الوقوفين : أي الوقوف بمرفة والوقوف بالمشعر الحرام . النجب : جمع نجيب الاصل من كل شيء .

(٣) الأتب : قيص بقبر كين .

(٤) التقوضة : تفعلة من قوض البناء . الفسطاط : بيت من الشعر . الطنب : حبل طويل يشد به صراقد البيت .

(٥) الزغف : الدرع الواسعة الطويلة . اليلب : الترس .

(٦) القاصمة : الكاسرة .

(٧) نوخ : نزل وأقام . الترب : مكان كثير القراب .

(٨) الحاج : اسم جمع بمعنى الحاج لجماعة مخصوصة منهم .

(٩) الهندية : السيف المنسوب الى الهند . القضب : جمع قضيب للسيف القاطع .

وكاد ينهبُ لكن ردَّ روعته
من بعدما كرعوا في النهب أشر بهم
فأجفلوا فالصأتنا في مواسطهم
تثبَّتوا فحملنا فأنثوا هرباً
والقوم شاهدةٌ أني لعبتُ بهم
فلو تراني وضربي في جموعهم
ظنّوا فضلّوا بما ظنّوا لزعمهم
حتى لقّوا ما لقوا من يمين سيّدنا
وحل في المصر مولانا بقصر علي
كأنه قصر عدن من تزخرفه
فأنثالت الخلق تدنو نحوه زُمرّا
أشراف مكة تتلوها مشايخها
وجاء رضوان يقفوه الشريف فتى الـ
سلطان مكة زيد^(٨) ابنُ مُحسنٍ من
وما سمعنا لأهل البصرة انحدرت

نبلي وُبنديق حامي الحملة ابن أبي^(١)
بنادقاً أوردتهم مورد العطب^(٢)
مثل الصوارم لم ترهب ولم تهب^(٣)
وما لهم ناصر منا سوى الهرب
وما خشيتُ بأن الموت يلعبُ بي
لقلت والله جُنَّ الشيخ وأحرابي^(٤)
ان ليس في الحاج من إن يُقدموا يثب
علي المعالي عليّ الأسم واللقب
لم يُبْنِ مُشبهه في سالف الحقب^(٥)
بلازورد ومحلول من الذهب
مواصي السير من رأس ومن ذنب^(٦)
وسائلون وأهلُ الشعر والكتب
علياء ربّ الندى والبأس والحسب
بجده في غدّ ننجو من الذهب
ملوكُ مكة بالأعلام والنوب^(٧)

(١) الروعة : الفزعة .

(٢) كرعوا : باشروا . أشر بهم : جمعهم شربون كأس المنون من بناوق أوردتهم مورد الهلاك .

(٣) أجفلوا : هربوا مسرعين . انصأتنا : سبقنا . الصوارم : جمع شارب لسيف القاطع .

(٤) وأحرابي : كلمة تستعمل للتأسف .

(٥) المصر : المراد بها مكة . بين : بالبناء للمجهول . الحقب : جمع حقبة المدة من الوقت .

(٦) أمثال : انصب من رأس ومن ذنب : أي من فوق والأسفل .

(٧) النوب : جمع نوبة جماعة من الناس ، وللمراد بها هنا الجيش ورجاله .

(٨) ابن : فصلت المهمة للضرورة .

وخيرهم ابنُ فروخ أتى بمنى
يقبلون أياديه وحسبهم
وبعد ما شرفوا طراً بحضرته
والمالُ يتبع أنواعَ الملابسُ جو
وقام سوقُ العطا للناس أجمع من
فعمّت الناس أعلام وأسفلهم
بحضرة الخضر قاس الناسُ حضرته
لولاه قتلت الأعجم وأنزل الشريف وارتح بيت الله بالريب (٦)
فيالها حضرة كانت مكة والمستجمعين بها حرراً من الذوب

* * *

وحين لم ير وقتاً للإقامة في
أتى فودّع بيت الله خالقه
فواصل الأبطح المهجور مؤنسُهُ
وبعدها رفع الأثقال حاملها
وبعد اربع فوق العشر نورنا

تلك البقاع ولا كسباً لمكتسب
ثم انثنى بفؤاد مدنف وصب (٧)
يومين يكرم من في المصر لم يُثب (٨)
نحو النبي الكريم السيد العربي
نور النبي بدا من داخل القُب

(١) الثرى : التراب . العتب : إسكفة الباب .

(٢) الضمر : جمع ضامر الهضم البطن . العرب : جمع عربة الشديد الجري .

(٣) غير ممطول : أى دون تأخير . النكب : من نكب ينكب اذا عدل عن الشيء .

(٤) التبر : الذهب الخالص . الناء : البعيد . اللقرب : القريب .

(٥) الغرب : الغريب .

(٦) الأعجم : الريب : جمع ريبة العكس والتهمة .

(٧) مدنف : من دنف المريض نقل مرضه . الوصب : المريض .

(٨) المصر : أي مكة .

فأقبلت سائر الأعيان مُسرعةً
فألبسوا خلعاً يَخْتَالُ لابسها
فزار مولاه مسروراً ومن معه
جُبنا مواضع لم نسمع لها خبراً
رأى الإقامة أياماً ثمانية
وسال وادي الندى فيه لطالبه
ثم انصرفنا وودعنا بخدمته
وكلُّ عُرب طرقتها غدت خدماً
وظنَّ جلُّ البرايا أنَّ ابن أبي
وجمَّع العرب أعلاها وأسفلها
والرأي ضربُ مجاهيل الفلاة عسى
وما دروا أن حرب الرّس أنبت في
حتى إذا جاوزت نجداً ركائبنا
يرجو ندى ملك في العز عادته

تستقبل المَلِك ربَّ الجحفل اللّجب (١)
كأنه ثمل من ابنة الغنب (٢)
لا زال ما عاش مسروراً بلا تعب
لولاه، وقاه ربُّ العرش من نصب
بها قضينا المنى في المربع الرحب (٣)
منه رأى الناس نيل القصد عن كُثْب (٤)
وحت نحو المغاني كل مغترب (٥)
لنا وعادوا هم الأضياف من سغب (٦)
ليل طوى سائر الآبار والقُدُب (٧)
لحربنا كي يموت الكل من كَغَب (٨)
ننجو بذا الأمر من ويل ومن حَرَب
قلوب أهل الفيافي دوحة الرّهب (٩)
رأوا تذله بالرُّسل والكتب
إن يطلب الروح منه سائل يُجَب

(١) الجحفل : الجيش . اللجب : ذو جلبة وكثرة .

(٢) الثمل : السكران ابنة الغنب : كناية عن الخمر .

(٣) بها : أي بالمدينة المنورة . منى : جمع منية البغية .

(٤) فيه : أي في المربع الرحب وهو المدينة . منه : أي الأمير . السكتب : القرب .

(٥) المغاني : جمع مغنى وهو المنزل .

(٦) السغب : الجوع .

(٧) ابن أبي ليل : كناية عن قطاع الطريق . القلب : جمع قليب البئر . لعل الصحيح (أبي ليل) كنية لرجل معين ، كما يظهر من الأبيات التالية .

(٨) وجم : عطف على طوى في البيت السابق . اللغب : التعب والاعياء الشديد .

(٩) الفيافي : جمع فيفاء المغارة لأماء فها .

فنال فوق الذي يجر بذلته
ومذ وردنا حدود البصرة امتلات
من الرباط الى المشرق يلحم بالـ
خيل ورجل وأتفاق لها خطر
تظن أن قام يوم الحشر فابتدرت
وغير بدع إذا انقضت مسارعة
يا أيها الناس هذا بدركم بزغت
قد ظن اعداؤكم أنواره غربت
وقد عرفتم يقيناً قدر غيبته
وما يقيم سواه مجدكم أبداً
قد ساد من قبله لكن وحقكم
موفق هو في كل الأمور فلا
أنا غريب ولكن مهجتي خلقت
من أجل ذا قلت ما قد قلت مجتهداً
والحمد لله رب العالمين على

ولو بغى بعضه بالبغي لم يصب (١)
عين الفلا بالقنا والزغف واليأس
دريهمية أصناف من العجب (٢)
وكل أبيض ماضي الحدّ ذي شطب (٣)
كل الوري نحونا من باطن الترب
من شرقها لعلّ كاشف الحجب (٤)
به الركاب اليكم غير مغرب
والشكر لله لم تغرب ولم تغب
وعيشكم في نواه قط لم يطب
وانتم القوم أهل العقل والأدب
شتان ما بين ركض الخيل والخب (٥)
تخالقوه بجد لا ولا لعب
منكم ، ورب السما والارض يعلم بي
وغير ذا القول لم يندب ولم يجب
سروركم بلقيا مولاكم الندب

(١) أي ولو بغى لم يصب ببعينه بعض ما أصابه بذلته .

(٢) الرباط : اسم موضع في ضواحي البصرة . المشرق : اسم محلة من البصرة . يلحم : يلقى .
الدريهمية : موضع بين البصرة والزيبر ، وفيه مشهد (طلحة) والزيبر (رضي الله عنهما) ، وجامع سيدنا
(علي) كرم الله وجهه ، إلى أن أصنافاً كثيرة ، وهجبة من الحيلة والمشاة والمسلحين بالبنادق والسيوف من
أهل البصرة استقبلوا الأمير بحيث وصلت مقرمتهم إلى الدريهمية ومؤخرتهم في الرباط والمشرق .

(٣) الشطب : جم شطبة للخط في متن السيف .

(٤) أنقضت : إلى كل الوري . لعل أي للملافة الأمير علي باشا .

(٥) لعل الصحيح (والخب) وهو سير الخيل على مهل وبطء .

ثم دخلت السنة الثامنة والأربعون ونحن في خدمته في مكة المشرفة ، وسرنا منها إلى المدينة ، وقدمنا البصرة في شهر صفر من السنة المذكورة .

ثم دخلت السنة التاسعة والأربعون وفيها بنى قلعته المعروفة (بالعلية) وكانت تُسمى سابقاً (بالقرنة) بضم القاف وسكون الراء المهملة وفتح النون وبعدها هاء معناه الزاوية التي يحيط بها خيطان أو سطحان أو جثمان ، ولما كانت هذه القلعة واقعة في ملتقى الدجلتين أعني دجلة والفرات . سميت بذلك ونقل اسمها إلى النسبة إلى اسمه سلمه الله تعالى ، وفيها ورد الخبر بموت (حسن آغا) حاكم العرجاء فركب في طريق البحر وأمّر على الخيل مملوكه (جوهر آغا) فنزل بهم العفّارة وكان أميرها يومئذ (شهاب بك بن أحمد جلبي) فأقام لهم الميرة والطعام وما يحتاج إليه سائر العسكر ودواهم فوصل الباشا اليهم يوم عيد الفطر وأقام أياماً وارتحل ونزل على العرجاء ، وأمر المتجندة والمقاتلة بمحاصرتها ، فاحصرت الفئة التي فيها ، وأميرهم يومئذ (بدر بن موحى) أحد المنتسبين إلى حسن آغا فلما علم إن ليس له طاقة بالمقاومة أرسل إلى حاكم بغداد وهو يومئذ (درويش محمد باشا) فأرسل اليه بعض خواصه يستعفيه عن بدر ومن معه فأجابه لذلك ورحل عنهم بعد أن أشرف الهلاك عليهم . ثم دخلت السنة الخمسون وفيها حج الأمير السعيد (حسين بك) ولد الباشا مد ظله ، وحصل للناس منه إحسان وإنعام حسب ما اقتضاه الوقت .

ثم دخلت السنة الحادية والخمسون ولم يصدر في هذه السنة شيء من باب ما نحن بصدد إيراده في هذا الكتاب .

ثم دخلت السنة الثانية والخمسون ، وفيها كانت الوليمة العظيمة التي تُلذّت وليتي الاسلام ، فانه قال أرباب التواريخ : وليتان كانتا في الاسلام لم يُر مثلهما ، وليمة الرشيد حين بنائه بزيادة بنت جعفر ووليمة حسن بن سهل حين بناء المأمون بابنته (بوران) وكانت وليمته — سلمه الله — ختانة الولد الرشيد (محمد بك بن الأمير السعيد حسين بك) ، فانه

جمع فيها أصناف المطربين ، وأرباب الألحان والمضحكين ، واستمرت أربعين يوماً يطبخ في كل يوم ما يكفي ألوفاً من الناس ، وكذا في كل ليلة ، وتشعل من الشموع والسررج والمشاعل والقناديل ما انقلب به الليل نهاراً والظلام بأسره ضياءً ، وترى الأرض كالسما من زاهر القناديل أو المشاعل أو كالروض تفتحت أزهاره غب الغمام الهاطل ، فلما تم أمر الختان أفاض على العسكر أضعاف الخلع على اختلاف طبقاتهم ، وتفاوت مراتبهم ، وقلت فيه تاريخاً :

قد عم مولانا بنعمته ذا الناس من قاص ومن داني
فسألت عن تاريخه خلدي فأجاني (هو حاتم الثاني)

ثم دخلت السنة الثالثة والخمسون واستمر فيها الأمان ، ومساعدة الزمان ، الى وقت تحريرنا هذا المؤلف أعني السنة الثامنة والخمسين ، وكان السبب الأعظم في ارتباط هذه الأمنية ما رآه سلاحه الله من الرأي في ولده السعيد حسين بك من تفويض الأمور اليه ، والتعويل في كلياتها وجزئياتها عليه ، فانه نصبه لهذا المنصب في شهر شعبان من السنة الخامسة والخمسين ، فقام بضبط الأمور ، وتدبير حوائج الجمهور ، قيام مضطلع بالمهام الجليلة ، مجرب لكثير الدهر وقليله ، فلا زال حصناً منيعاً ، ما كرّ الجديدان ، وتعاقب الملوان .

وليعلم الواقف على ما ذكرناه من هذه الوقائع إننا لم نورد تفصيلاً بالمذكور وإنما عمدنا إلى ذكر مجمل من المشهور ، وأضربنا عن أحوال كثيرة ، ووقائع غزيرة ، لا يحتملها هذا المختصر عمداً لا سهواً إتكالاً منا على ما نويناه من تأليف تاريخ مستقل للإمارة الأفراسيابية مفصل على فصول : أولها في ذكر ارتحالهم من ديار ربعة المسماة (آمسد) و (ديار بكر) إلى البصرة . ثانيها : في مبدأ ظهور أفراسياب باشا وانتشار أمره ، وبلوغه درجات المجد إلى انتهاء عمره ، وثالثها : في ذكر مولانا دام عزه مبوباً على أبواب : الأول : في شمائله

وخمائله وذكر ما يناسبها من حكايات الملوك وأشعار الشعراء . الثاني : في ذكر وقائعه وما يشاكلها . الثالث : في ذكر سماحته وعطاياه وجوده ونداه ، الرابع : في بيان ما شاهدته وسمعته من إكراماته وشفقته التي اشتهرت في الآفاق ، بين أهل الخلاف والوفاق ، الخامس : في ذكر أشعاره العربية والبحث عنها وعن معانيها وإيراد ما يناسبها . السادس : في ذكر أشعاره الفارسية والتركية وما يضاهاها ، السابع : في إيراد تصانيفه الموسيقية ومعانياته وتواريخه وحكاياتها وسبب وقوعها وشأن نزولها . والله المستعمل إتمام المراد ، إنه هو السميع الجواد .

هذا آخر ما كتبه المؤرخ عبد علي بن ناصر الشهير بابن رحمة الحويزي في تاريخ الإمارة الافراسيابية وأميرها علي باشا بن افراسياب باشا ، وذلك في كتابه المخطوط : (السيرة المرضية) . ولنا وطيد الأمل بأن تلقى هذه الوريقات أضواءً كاشفة على فترة مظلمة من تاريخ البصرة ورجالها المسؤولين ، وأن تكون حلقة كانت مفقودة من حلقات تاريخ هذا الجزء العزيز من عراقنا المحبوب ، وأن يفتح الباري (عز وجل) لنا في كل يوم آفاقاً مجهولة . إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

(NEC)

DS79

.9

.B37

H893

1961